ديوان نادر فى تاريخ الشعر العربى ، تأخر نشره عن تاريخ نشر لدات الشاعر ورصفائه وهو قليل الرصفاء فى الشعر العربى ، وربما كان هذا من الغبن الذى لحق بالشاعر - حيًا وراحلاً - وربما كان هذا الغبن لم يلحق بالشاعر وحده ، بل لحق بتاريخ الشعر العربى ذاته ، حيث نشر فى زمن الطباعة دواوين الخفاف من متأخرى الشعراء والنظامين ، وأغفل مثل ديوان ابن الرومى . .

ونشر هذا الديوان وذيوعه كان حقيقًا أن يغير كثيرًا من مفاهيم نقدية شاعت بين الناس ، واتخذت سمت التقاليد المرعية ، غير أن هذا النشر أيضاً متعلق بتذوق الناس للكلام وتفتيشهم له ، وهو أمر لم يتحقق الا لدي قلة نادرة أيضًا تصبر على القراءة والنظر ، وتنفر من الرضوخ لسلطان الذوق الشائع ، ومن ثمَّ رزق شاعر كالبحترى مثلا الذيوع والتأثير ، ولاتثريب على الناس ولا على قريع ابن الرومى (البحترى) ومعاصره ، لكن فاء الناس إلى البحترى - الذى لم يخرج عن عمود الشعر - مغفلين صنوه ، أو صوتا آخر به تقابل الصورة أو تكتمل ، دون الاتكاء على صوت واحد أو جملة أصوات متقاربة ، مهما بلغت هذه الأصوات .

وربما كانت بدوات ابن الرومى ، وسهواته الجبارة التى شاعت عنه ، وراء شىء من إجفال النظر إليه ، وإيثار السلامة عن خوض غابة غير مأمونة ، وتلك هى بدوات النحس والتشاؤم ، فخيلت لكل من يهتم بالشاعر أنه ملاق شيئًا من العواقب والنذر ، وقد ظل الشاعر حياته كلها تحت وطأة هذه القالة ، مُحلاً عليه فى موارده رهين كسر بيته ،ورويت فى ذلك شائعات تواترت عنه ، ونشط خياله أو وهمه الوثاب أو ذهنه المضطرب فصور له أن الأمر حقيقة واقعة ، واستغل الخبثاء - وهم آفة كل العصور - أعصاب هذا الرجل المسكين ، يتلعبون بها ما شاء لهم التلَعُّب ، فضاقت عليه الدنيا ، أو ازدادت ضيقا ، حيث لم تتسع ولم تتراحب أمام عينيه يوما ، وصدق العصر الحاضر هذه القالة أيضا . . فما يكاد

أحد يقترب من الشاعر أو يفكر فى مصاقبته ، إلا وتلعبت به حوادث المصادفات فآمن الناس أو كادوا ، وإذا الفراش الذى يغشى النار أو الهارب منها سواء . اهتم بديوانه جعفر والى باشا وكيل نظارة الحقانية فأقيل ، ونشر طائفة من شعره فى مجلدين الشيخ محمد شريف سليم بك ، عميد مدرسة دار العلوم - ربما كان أول نشر عربى لديوان الشاعر ، مشفوع بالشرح والتقويم - فلحق به أذى لم أحققه بعد . . والعهدة فى هذه الرواية على الأستاذ العقاد سماعا - وأصدر كامل كيلانى مختارته فى ثلاثة مجلدات ، بتصدير العقاد سنة ١٩٢٤ ، وحسبها الناس ديوان ابن الرومى ، فلحقته خسارة شديدة ، ويقال أيضا أن مدير المطبعة «سيد بك» مات ، وتجاسر المازنى على التوفر على ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية ، وكتب عنه مقالات مسهبة فى «حصاد الهشيم» سنة ١٩٢٤ - وهي من أدق المقالات ، التى كتبت عن الشاعر وشعره - فهيضت ساقه ، لسبب لاتهاض له السيقان ، وظل الرجل أظلع بيِّن الظلع حتى رحل فى ١٩٤٩ .

وكتب عنه العقاد كتابه الجليل «ابن الرومى . حياته من شعره» وهو أهم كتاب كتب عن الشاعر على الاطلاق ، مع نفورنا من «أفعل التفضيل» فى كل ما نصدر من آراء نقدية . . لكننا نراها فى محلها الصحيح ، فسجن العقاد تسعة أشهر بتهمة العيب فى الذات الملكية ، وتوفر على قراءته ونخْله الأستاذ على الجندى الشاعر ، عميد دار العلوم ، فبقى فى درجته الوظيفية ثمانية عشر حولا كريتا ، حيث رقى زملاؤه !! وتمتد هذه القتامة إلى عباس خضر حين تحدث عن مختارات كيلانى ، مكتفيا بها عن ديوان ابن الرومى ، بعد أن نفض عن مخطوطته الغبار - كما قال - شامتا فيه : يستاهل !!

لأن شعره لايروق له ، ونحن نزعم بل نكاد نوقن أن عباس خضر لم يقرأه ، وربما لم يره مكتفيًا بالشائعات التى تنطلى حتى على المثقفين من أمثال عباس خضر، أو أن ذوقه قد مرد على الشعر الذى لا يحوج متلقيه إلى بصر وزكانة ، وما هكذا يكون شعر ابن الرومى ، فَقَرَفه بما يستحق .

وهذه المصادفات التى اقترنت بابن الرومى حديثا ، لم تكن إلا من قبيل الأفاكيه ، التى تبعث على الابتسام فى أغلب الأحيان ، غير أن ابن الرومى شأن

كل مصادفة تقع للناس فى الدنيا ، ولم تكن بمثنيـة رجالا لم يقفوا عندها ، وكان اهتمامهم من قبيل الاهتمامات «المباركة» لم يتعلق بها نحس أو تشاؤم .

اهتم به العـقـاد والمازنى وعلى شـوقى (ت ١٩٥٩) فى سنة ١٩١٢ ، وأقـبلوا على قراءة مخطوطتـه فى دار الكتب ، متلوِّمين لدى نونية الشاعـر التى يمدح بها أبا الصقر :

أجنت لك الوجـد أغـصان وكثبـان فيهـن نوعان : تفـاح ورمـان

وهى من فرائد شعره ، فعارضها كل منهم بقصيدة من وزنها ورويها ، وذاعت القـصائد ذيوعًـا كبـيرًا - درّست لطلابى الـقصـائد الأربع سنوات مطولة ، ولم يحدث إلا الفـأل الحسن - وشاء محـمد مصطفى الماحى أن يلحق بالمعـارضين ، فنظم قصـيدة على غرارها ، ولعل هذا حـدث حين كانوا يعملون مـعًا فى ديوان الأوقاف ولم يعارضهـا شكرى حيث كان فى إنجلترا ، وغدا كتـاب العقاد عن ابن الرومى من أمهات المصادر عن الشاعر وشـعره وكذلك مقالات المازنى ، وإن كان أغفلها حـسين نصار حين نشر ديوان الشـاعر محققـا ، وتلاحقت الدراسات عن صاحـبنا ، فأخرج (روفـون جست) كتـابه : ابن الرومى حياته وشـعره ، و«ابن الرومى» لمحمد عبدالغنى حسن ، و«ابن الرومى فى الصورة والوجود» لعلى شلق، و«ابن الرومى شاعر الغربة النفسية» لفوزى عطوى ، و«ابن الرومى» لأحمد خالد، إلى جانب فصول مسـهبة أو غير مسهبة فى كتب تعـرض للعصر العباسى ، وهى دراسات تتفاوت جودة وتوسطًا ، ورداءة ، وبعضها يكتفى بنقل الدراسات السابقة عليه سـاطيا دون أن يشير أو يضـيف شيئًا ذا قـيمة ، وآخر هذه البـحوث رسالة جامعية لهناء عابدين بآداب سوهاج «ابن الرومى بين ناقديه فى القديم والحديث»، وعرضت للشاعر فى تقص نقدى جيد .

ظل الديوان حبـيس المخطوطات وآخر عـهدى به ١٩٧٢ حين كـنت أقارن بين الشـاعر والمازنى عكفت عليـه ، فى دار الكتب المصـرية بباب الخلق - نضـر الله أيامـها - ولم أر عنتـا فى القراءة والنـقل اليدوى ، لأنهـا نسخـة شديدة الروعـة والدقة، حتى قيض الله للديوان رجـلا مسرف الشجاعة حسـين نصار ، فى صبره

ودماثة طبعه ، فأخرج الديوان مع طائفة من تلاميذه فى ستة مجلدات ، وقد تعقبت نشرته بالتصحيح اللغوى والعروضى فى دوريات متعددة حتى جمعتها فى كتابى «أدب ونقد» ١٩٨٨ ، وأشهد أن الرجل تلقى ملاحظاتى بصدر متراحب ، وحنو شديد ، شاكرًا ومحييًا ، ثم صدرت الطبعة الثانية من الديوان فصنعت اللجنة بملاحظاتى صنيعا لم أرضه ، حيث صححت ، وحين تركت التصحيح - يبدو عدم اقتناعها بما قلت - كررت خطأ الطبعة الأولى ، ونبهت على ذلك فى جريدة الأهرام وأرجعته إلى «سهوات ، ابن الرومى الجبارة ، أو ملاحقة «النحس المبارك» ، وحملته على محمل الفكاهة معرفا بأن حسين نصار لم يراجع الطبعة الثانية ، وإلا كان يشير أو يأمر بالاشارة إلى كاتب هذه السطور !!

وثمة نشرة للديوان صدرت بعد نشرة حسين نصار بحوالى عقدين من الزمان اضطلع بها عبد الأمير على مهنا ، ونشرتها دار ومكتبة الهلال فى بيروت الطبعة الأولى ١٩٩١ ، وأشهد أننى لم أرها ، وإن كانت الباحثة السوهاجية اعتمدت عليها أحيانا .

وجاءت اعتماداتها فى غير موضعها كما أشرت إلى ذلك حين ناقشتها ، كما أشهد أننى رجل غير حسن الظن بطبعات بيروت فى نشرات التراث ، حيث تغلب التجارة الأمانه العلمية والدقة ، ورفض قديما (اميليو غرثيه غومث) نشرات لبنان واعتمادها فى البحوث الجامعية ، ومعه حق كثير ، لاتعصبًا إقليميًا ، بل إحقاقًا لما نراه ونعتقده .

ولعل من جملة الأسباب التى عاقت نشر ديوان ابن الرومى ، والنسيئة فى إصداره ضخامة الديوان بصورة شديدة لافتة للنظر ، وكان القدماء والمحدثون يرسلون هذا الحكم دون إحصاء ، فراق لى أن أقوم بشىء يسير من ذلك مقارنا بينه وبين شعراء عصره بصفة عامة :

١ - ابن الرومى : ٢٠٣٩ قصيدة عدد الأبيات ٣٠٥٣٠ .

٢ - مهيار الديلمى : ٣٨٧ قصيدة ،عدد الأبيات ٢٢٥١٥ .

٣ - البحترى : ٩٣٣ قصيدة ، عدد الأبيات ١٥٨٥٥ .

٤ - الشريف الرضى ٦٨٥ قصيدة ، عدد الأبيات ١٦١٩٩ .

٥ - أبو العلاء المعرى ١٧٠٢ قصيدة ، عدد الأبيات ١٣٥٩٥ .

٦ - أبو نواس ١٠٠٠ قصيدة ، عدد الأبيات ٧٥٣٧ .

٧ - أبو تمام ٤٨٤ قصيدة ، عدد الأبيات ٧٢٥٦ .

٨ - المتنبى ٢٨٦ قصيدة ، عدد الأبيات ٥٣٥٧ .

وبين يدى قائمة مطولة بأبى العتاهية وأبى فراس ، وبشار بن برد ، والعباس بن الأحنف وغيرهم ، وكلها تؤكد حقيقة لا حجاج فيها ، وهى أن أطولهم قامة هو شاعرنا ، يليه مهيار وقصائده مطولة جدا ، وبها ثقل فى إطالتها وربما كان للدم الفارسى دور فى هذه الإطالة لأن شعراء الفرس تطول قصائدهم طولاً غريبًا ، وإن كانت الثقافة العربية غالبة ، وشعرها أغلب ؛ لأن طول النفس يكاد يكون خصيصة شخصية قبل أن يكون خصيصة لغوية ، أما أبو العلاء فتغلب عليه المقطعات خاصة فى اللزوميات ، وينبغى أن نذكر هنا لزوميات ابن الرومى ، فى مطولاته خاصة الدالية ، التى التزم فيها الفتحة قبل حرف الروى :

أبين ضلوعى جمرة تتوقد على ما مضى أم حسرة تتجدد

وبلغت ٢٨٢ بيتًا، وهو طول غير معهود فى لزوم ما لا يلزم ، يدل على ثقابة جنانه ، وسعة صدره فيما تضيق به الأنفاس ، كما ينبغى أن نؤكد أيضًا أن الطول ليس المحك فى تفضيل شاعر على شاعر ، لكن إذا أضيف إلى الإطالة الإجادة ، فقد شأى الشاعر من تقدمه ، وأعيا من يأتى بعده ، وهكذا نرى شعر صاحبنا حين يطيل وحين يقصر ، وما أسهل الشعر عليه ، كما قال القدماء ويقوله المحدثون حيث استوت بديهته وفكره ، ولم نر هذا الاستواء لدى غيره إلا عند أحمد مخيمر من المحدثين ، لايكاد كلاهما يلقى بباله إلى الكلام ، حتى تهطع إليهما أجياد الكلام النافرة ؛ فإذا هى مأنوسة سهلة القياد ، وعبارة «استواء البديهة والفكر» ، قالها ابن الرومى حين تعجب الناس من سرعة نظمه قصيدته البائية :

نجاك يا ابن الحاجب الحاجب وأين ينجو منى الهارب

وبلغت ١٠٧ أبيات ، نظمهـا فى ساعتها ، وليس فيهـا حرف مصلح ، ولعله يصف بهذه العـبارة التى نطق بها عفـوا شعره كله ، وكل شعـر جيد لا تبيـن فيه أمارات المشـقة . . وقطرات العـرق وغبار الرحلة ، التى تبـدو أحيـانا فى صورة مـعاظلات ، ولايعنى ذلك أن الشـاعر لا يـعانى ، بل إنه يدخل الحـومة شـاكى السلاح ، متخذا لأمته ، فارسًا عريق الفروسية .

وديوان ابن الرومى دخل فى نسـيج الذاكرة الشـعرية للأمـة ، رغم الغبن الذى لقيه ، والشـعراء كالناس عمومًا وكـالأشياء بعضها مـجدود وبعضها غيـر مجدود بالنسبـة للضوء أو العتمـة ، لكن لانظن أن شاعرنا قـديمًا وحديثًا - خـاصة فى الحديث - يشكو عدم ذكره ، ربما يشكو فى حياته السغب والمخمصـة ، وأصابته حرفة الأدب فى الصـميم ، وأوغل الحرمان فى أعصابه ، فـأسرف فى الملاذ حين تتاح له وجنى عليـه عقابيل لم تفلت منها عـافية الشاعـر عصبيّـاوجسديًا ، دخل الديوان فى ذاكرة الأمة ، فلا يخلو سفر من أسفار الأدب والتاريخ واللغة من ذكر الشاعر حتى ولو كان ذكر الإقذاع والنكير ، وعاب عليه المتحنثون شعره الهجائى، وإن كانوا طربوا له فى خلواتهم - نعتقد ذلك - واقفين عند تصويره الحى المبدع، ولقطاته الفنية التى تفضح المصورة الأمينة ، لأنه يضـيف إلى التصوير مشاعره وما هكذا تصلح المصورة ، وهجـائيات ابن الرومى نمط وحدها فى هذا البـاب ، وما أظنها - على إفـحاشها - زادت عدد الـفاحشين واحدًا ، وحـسنًا أن صدر ديوان الشاعر بتحقـيق حسين نصار ، وفيه تلك الأمانة والشجـاعة التى تحلى بها المحقق الجليل ، ولم يخل بتلك الأمانة مسـتجيبًا إلى تلك الأصوات التافـهة من المنافقين المضللين الضالين !! .

عرف المشارقة ديوانه فى حياة الشـاعر ، وعرفه أهل المغرب والأندلس ، ولقب الأندلسيون أبا عبدالله الرصـافى بابن الرومى ، كما هو شأنهم فى التلقب بألقاب المشارقة ، رجـالا ونساء ، وإن كنت أرى البون الهائل بين الرصـافى وبين شاعرنا إلا إذا كان وجه الشبه وصف الطبيعة ، وهو وجه مـفارقة لا وجه مشابهة ، شتان بين الوصـفين ، لكننا حـين نرفض الموازنة ، نتخـذ منها شاهدًا علـى ما نؤم من ذيوع الشاعـر المشرقى لدى أهل الأندلس . و«ذخيرة» ابن بسـام الشنترينى وتوفى

٥٤٢هـ تمتلئ صفحاتها باحتذاء الأندلسيين لابن الرومى ، فى صوره ودقته ، واستدراكاته، وشتان أيضا بين الأصل والتقليد ، ويدل هذا أيضًا على شدة استقصاء ابن بسام وقوة حافظته ، وإن كان ألف كتابه «والنفس غير جميع» ومع ذلك بانت ذاكرته التى لاتكاد تخرم شيئًا ، لأن تقيّل السلخ والأخذ والإغارة والنهب - كلها ألقاب للسرقات الأدبية قديما - إنما تنثال بها الذاكرة وقت القراءة والتأليف ، دون مراجعة للأصول غالبًا .

على مدى ثمانية أجزاء يطل طيف ابن الرومى فى الذخيرة ، ويطل قبلها فى تلافيف الذاكرة الشعرية للشعراء الذين تعقبهم ابن بسام ، ولعل ديوان ابن الرومى رحل إلى الأندلس فى حياة الشاعر نفسه ، وإن كنا لم نذكر من اضطلع بحمله إليها . . لكن دوران الرحلة الدائب بين بغداد والحواضر المشرقية بعد سكون بازى الخلاف بين الأمويين فى الأندلس وبغداد العباسية يؤكد الحقيقة الأدبية ، التى عززها الاستقراء والشواهد الشعرية ، وإن غمض علينا ناقلو الدواوين ، ولكنا هنا نذكر المتنبى إذ حمل ديوانه زكريا بن الأشج الجزائرى الأصل إلى الأندلس ، ومارس تأثيرا هائلا ، بيد أن هناك تأثيرًا روميًا ، فى الشرق وفى الأندلس على السواء ، ويتعلق بهجاء شاعرنا للورد وتفضيله للنرجس ، ألفت كتب ونظمت قصائد معارضة ، وشاتمة لابن الرومى ، أقلها أنه «جُعَلى» يموت هذا الجنس الحشرى من الورد ، وكان مبلغ ما قاله ابن الرومى محتجا :

أين الخدود من العيون نفاسة ورئاسة لولا القياس الفاسد

ومتتبع هذه المعركة الشعرية مدرك بلا ريب مدى تقصى ابن الرومى للمعنى ، واحتجاجاته الشعرية القصية عن برودة الذهن «حسن البيان يرى الظلماء كالنور» كما يقول هو نفسه .

ظل ماء الشعر عند ابن الرومى يسرى فى أعراق الذاكرة الشعرية جهرة أحيانا ، ومستترًا فى أحيان كثيرة ، لدرجة أن رجلا كشوقى لم يتلبث لديه كثيرًا ، واعترف بذلك للعقاد حين صفا الأمر بينهما قليلا ، وأقلعت السماء عن غيمها داعيًا إياه لحفلة شاى ، سأل شوقى العقاد عن سر إعجابه بابن الرومى - وكان النقاد

يتندرون بإعجاب العقاد فى مجال الغض من الشاعرين - فأجابه العقاد مفصلاً الحديث ، فما كان من شوقى إلا أن قال : سوف أعيد قراءته لكنه كان بأخرة من عمره ، فلم يتح له أن يعيد .

قيض الله للشاعر العباسى أن يكشف أسداف الخمول الجائر عنه ، رجل فى مطلع حياته الأدبية هو العقاد ، وأن يكتشف خير ما فيه - وفيه خير كثير - فقرأ ديوانه على مكث هو والمازنى خاصة ، وهداهما الشاعر إلى نفسهما وإلى مفهوم مخالف للشعر غير المفهوم السائد ؛ ولذا نعتقد أن ابن الرومى حيث التقيا به ، إنما التقيا بصديق قديم على بعد الشقة ، وقرت لديهما عقيدة شعرية أن ابن الرومى قرين لشعراء أوربيين يقرآن لهم ، دون ذوبان فى أحد ، ودون أنى يكسف الأوربى ما هو قار لديهما فى التراث الصحيح ، وتلك هى الفائدة المرتجاة من التأثير والتأثر، كما نعتقد أن مفهوم الديوانيين للشعر امتداد لمفهوم قديم فى التراث العربى مع نفحة شخصية؛ذلك المفهوم الذى تسعد فيه الفكرة الشعرية الوجدان الصحيح ليطيرا بجناحين من الخيال ، وكان ابن الرومى مع قرنائه الكبار : المتنبى، والشريف ، وأبوتمام والمعرى و إخوان هذا الطراز ، هم السلف الصالح فى التراث الشعرى العربى ، وإذا خلا ديوان العرب من تلك الأسماء . . فماذا يبقى؟

عارضه العقاد والمازنى ، وعلى شوقى ، وسرى فى شعر شكرى تشاؤمًا وانقباضًا؛ حيث تنشد نحيزته هذا اللون من الشعور والكلام واستأثر بالعقاد كثيراً فى استدراكاته ، وإخراج ما يتوهم أنه داخل فى المراد، واللفتات الذهنية البارعة، وفى السخرية ، وفى علو نبرة التشاؤم - خاصة فى بواكير العقاد - وفى مطاوعة الكلام ، على حين كثرت قراءاته فى الآداب الأجنبية ، فالتقى الوافد والأصيل فى نفس تهضم وتستوعب ، ولو لم يكن العقاد - شأنه شأن كل شاعر أصيل - على نسقه النفسى ومطارح فكره لما كان لديه قابلية لأن يتأثر بكائن من كان ، ولو كان ابن الرومى شاعره الأثير .

كذلك كان الشأن مع صديقه المازنى ، تشاؤمًا ، وحزنًا ممضًا ، وسخرية حتى من نفسه ومن وجهه كما صنع صنوه البغدادى قديماً :

شغفت بالخرَّد الحسان وما يصلح وجهى إلاَّ لذى ورع

كى يعبد الله فى الفلاة ، ولا يشهد يوما مساجد الجُمع

وتعلو النبرة لدى المازنى فيهجو نفسه شكلاً وموضوعًا، ويرثى نفسه فى سخرية مريرة كاشفًا ما تواضع عليه الناس من زيف ونفاق .

انظر إلى وجهى الشتيم اللعين .

وجاءت قراءة المازنى للشريف الرضى معجباً به وبصاحبه القديم ، والشريف أجزل شعراء العربية ، فأعدته الجزالة ، ونعده أجزل جماعة الديوان ، دون أن نستثنى أحدا ، وإن كان بعضهم يناهزه كعبد الرحمن صدقى ، وعلى شوقى ، وأحمد مخيمر من شعراء ما بعد الديوان ، وامتزج الشريف وابن الرومى فى دم مازنى لاينصل لونه ، مع أمشاج متباينة من الشعراء الأوربيين ؛ مما جلب عليه تهمة الإغارة والسرقة ، ونفخ فيها التيار المحافظ ، وأرَّثها جماعة أبوللو ، ولا نزال نعتقد أن ديوان ابن الرومى فى حاجة إلى قراءة دقيقة ، وتذوق رفيع ؛ حيث امتد تأثيره خارج نطاق الديوانيين ، وكان محمود شاكر (أبو فهر) من قرائه الأصدقاء ، تشهد قراءة شعره بهذه الصداقة التى لاتخفى ، كما نعتقد أنه فى حاجة إلى مختارات ، وإذا جاز الاقتراح ، فأرجو أن تنهض دار الهلال بطبع مختارات الشاعر ، وأرجو ألا تخشى من بدوات الشاعر المتشائمة ، وسهواته فى النحس ، ولعلها حين تذيع بين الناس تكفكف غرب هذه «السمعة» غير الحسنة ، وعلى كاتب هذه السطور «التعويض» المناسب حيث أخذت عهدًا وميثاقا غليظا من الشاعر فى مرات كثيرة ، - آخرها أننى أتداوى بقراءة شعره - أن يكون مأمون البادرة ، فإذا أفلحت فإننى أرجع ذلك إلى «بركات» ابن الرومى . وما ذلك بعزيز .

فى الخامسة أو نحوها كان مجلس عزاء يضم جمهرة من قراء القرآن الكريم ، يتذاكرون الفائدة المالية التى تدرها عليهم المصائب ، فإذا بأحدهم ينشد «مصائب قوم عند قوم فوائد» بضم الدال فحفرت فى نفس الصبى ، يومئذ ، كما استمع فى هاته السن إلي بعض العوام ينشد متمثلا :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ينطق الكلمة الأخيرة «تنمردا» وإن فى بداية الشطر الثانى «وإذا» مع كسر الوزن»

ثم أتيح له فيما بعد أن يقرأ هذا الكلام فى ديوان المتنبى ، فأدرك إلى أى مدى كان الرجل مجدودا سائرا على ألسنة الناس وقد «أصبح الدهر منشدا» كما قال فى قصيدة أخرى ، وذكرته هذه السيرورة بما ذكره الرواة - باختصار - عن شانىء للمتنبى أقسم ألا يقيم فى بلد يذكر فيه الشاعر أو شعره ، فارتحل لطيته ، وكلما حل ببلد سأل أهله هل يعرفون الشاعر فيجيبونه بالإيجاب ، فيرحل حتى وصل إلى محلة سأل أهلها عن الشاعر فلم يذكره أحد ، فحمد الله وألب بالمكان حتى كان يوم الجمعة فصعد الخطيب المنبر وبعد حمد الله والثناء عليه ، قال :

أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

وهو بيت ذائع من قصيدة ذائعة للمتنبى ، فإذا بالشانىء يعود إلى بلده من جديد قائلاً : هذا الرجل كالقدر لايقاوم !!

هذه السيرورة فسرها المازنى فى دراسته المسهبة عنه فى «حصاد الهشيم» «بقوة» الشاعر، ورجعها العقاد إلى «الحسد» مظهر كل فضيلة ، وكان المتنبى شديد الشعور بهذه الخلة ، حتى سمى ابنه «محسدا» وحتى إن الأيام يحسد بعضها بعضا «وحتى يكون اليوم لليوم سيدا» .

والحق أن أبا الطيب رزق من القوة كفلا عظيمًا ، ورزق من حسد الحاسدين كفلين من العذاب الذى تلذه النفس القوية ؛ لأن غير المحسود كائن لا يستأهل الحياة حيث إنه عاطل من المواهب التى يُحسد الناس من أجلها ، خامل من معانى الرجولة أو الإنسانية ، خلو من الأخلاق العليا التى تثير الغيظ ، وتشعل النار فى العرفج ، وقد أحسن ابن رشيق حين وصفه «ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس» ، وهى كلمة نافذة تصدق على جبابرة المواهب وأفذاذ العقول .

وقد أحس المتنبى بهذا المعنى فقال :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وما كان الرجل إلا نافذ النظر إلى ما وراء سجف الغيب ، فلم يصف زمنه فحسب ، وإنما امتد حتى يومنا هذا ، دون أن يغالط أو يغالى فى تعبير شعرى كعادته وعادة نظرائه حين يفخرون .

جاء المتنبى إلى الدنيا فى مستهل القرن الرابع ، وكان أوان النضج والقطاف فى كل ما زرعته الحضارة العربية الإسلامية ثقافة وسياسة ومذاهب ونحلاً ، وطوائف وشيعاً ، وقد اعتورها ما يعتور الحضارات وأهلها من شيوع المطامع والشغب ، والدسائس والمؤمرات ، وكانت الكوفة خاصة مباءة الشاغبين ، فالتقطت باصرته وبصيرته صورة هذه الحياة وعاشها ، واكتوى بنارها ، ونضجت فى شعره حكمة منخولة بحكم نحيزته المتأملة ، وكأنه لم يلتقط الصورة حسب بل خلقها ، ولذا لاينظر إلى هذه الحكم كأنها خلاصة دراسة وتأمل ، وإفادة من قراءاته ، ربما تفيده الدراسة والقراءة ، ولكنها لا تخلق منه الشاعر الحكيم لولا أنه مهيأ لها سليقة ، وكأيِّن من شعراءحكماء قرأوا ما قرأ ، ولم يكن لحكمهم مثل ما رزقته حكمة المتنبى ، حيث تعمل البداهة وفحولة الشاعرعملهما فى كل ما خطته يراعته .

المتنبى رجل مأزوم ، وكل الشعراء عادة أصحاب أزمات ، لكنها هينات لينات فى طبائع الشعراء الذين يخف محمل الدنيا عليهم ، بيد أن صاحبنا ورث هذه الأزمات ، واكتسبها ، فغدت أزمته الفذة ، كانت جدته قد أسرَّت إليه بحقيقة نسبه العلوى . واحتمل الرجل هذا السر . تعلى به مراحله فى أمة تقيم للأنساب

كل وزن ، وتحيفته وضاعة هو براء منهـا . وكشف هذا السر أو وقع عليه الاستاذ محمود شاكـر فى كتابه الرائد عنه، كما تحمل الشاعر نبـزه بالنبوة وأفسح لها من كلامه ما يرشح هذا المغمز لـواصب ، ودافع عنه أبو العلاء لغويا بأنها من «النبوة» أى الارتفاع ومرض الأستاذ العقـاد فى الرواية وإن كان يرى أن الذى غمزه بها إنما هو من جبابرة الشياطين ، فى دراساته عن المتنبى فى مطالعات فى الكتب والحياة، وهى دراسات غير مسبوقة خاصة فى مقارناته بين المتنبى وفلسفة القوة لدى نيتشه، والبـقاء للأقـوى لدى داروين، واطلع عليهـا دون إميليـو غرثيـه غومـث عميـد المستشرقين الإسـبان فى دراسته الجيدة والبليغة عن الشاعـر ، الذى نعته بأنه شاعر العـرب الأكبـر وإن كان لم يشـر إلى إفادته ، وقـد ترجم هذه الدراسة فى أمـانة وبلاغة د. الطاهر مكى .

وهذه النبوة التى قـرف بها المتنبى لعلهـا نسيت وأسدل السـتار على بواعثـها ، ونحن لانؤمن بهـا ولا نعتـقد أن الشـاعر ارتضـاها ، رغم الحكايات التى تشـاكه الأسـاطير وتنسـب إليه بعض المعـجـزات ، فهـذا من الملح الذى يشـوب النوادر والحكايات ، ولم يكن الشاعر ممن تجـوز عليه الغفلة أو استغفال الآخـرين فيصدق فى نفسه هذه المثلبة ، وثمة شاعر حاول أن يعلل هذه التهمة فقال عنه :

هـو فـى شعـره نبـى ولكـن ظهـرت معجـزاتـه فـى المعانـى

صحيح أن شاعرنا بعيد المطامح ، شديد الاعـتداد بذاته ، لكننا نحسب للتعبير الشعرى حسابـه فلا نأخذه كحقائق الرياضيات . ولذا فكل تعـبيراته فى هذا المقام تحسب للمـبالغة الشعـرية حسابها ، دون أن تفـتئت على حق الشاعر فى كـبريائه الباذخة ، التى ترى أنها فوق كل محل يرتقى ، وكل عظيم يتقى ، ويجوز الفخر فى الشعر حين لايجاز فى النثر كما يؤكد القدامى .

فى شاعرنا كـثير من طموحات دون كـيخوتى دى لامنشا ، وكثـير من أحزان هاملت الأزلية ، لكن يغلب تعقله سذاجات فارس لامنشا ، وتغلب إرادته أحزان هاملت وترددداته ، إنه نسيج وحـده - حين قيلت هذه العبـارة أول مرة - قبل أن تلوكها ألسنة الابتذال .

كان المتنبى مجدودا ، ذائع الصيت ، تزدلف إليه تيجان الأمراء فى زمنه ، وينشدهم الشاعر مدائحه جالساً مثلهم ، أو يجلسه الأمير مكانه . ولكن ذلك لم يُرض مطامحه ، فخيل إليه أنه خلق للملك والسياسة واصطنع إليها الذرائع غير المزرية بالطبع ، ولم يكن الرجل إلا واهماً لأنه من رجال النظر والفن ، ولو كان الزمن أسعده بهذه الولايات لخسرت الإنسانية - لا العربية حسب - فقد مسح الزمان بذيوله على كثير من الأسماء ، وبقى مذخوراً مصوناً كل ما خطه قلم المتنبى ، وما هذا بالشىء الهين أو اليسير .

لقد غدا شعره فى سمع الدهر ووجدانه ، وحل فيه أرفع محل حتى فى حياة صاحبه ، وحتى تغيب العربية من الدنيا ولن تغيب إلا بغياب الحياة ، جمع المتنبى ديوانه فى حياته ، وأرخ لكثير من قصائده ، وأرخ أبو فهر للديوان كاملاً . وقامت حوله معارك فى حياته وخاصة مع النحاة والشانئين عليه ، واصطفى الشاعر صديقه ابن جنى بشرح ديوانه وغوامضه ، وكان يحيل سائليه عليه ، وكان ابن جنى - وهو ممتع بإحدى عينيه - كفاء هذه الرسالة فشرحه لم يقف عند اللغة والنحو ، بل كان يطبيه أن يجرب نظر الأديب البلاغى ، وإن كان بعض معاصريه يقرفه بأنه تبلد حماره حين يمد عينيه خارج اللغة والنحو ، وما نظنها إلا المعاصرة!! .

وقد تعددت شروح الديوان قديماً وحديثًا ، كما تعددت الدراسات عنه وعن الشاعر لدرجة يمكن أن نطلق عليها اللفظ المعاصر فى الجامعات الأوروبية «كرسى شعر المتنبى» وليس من هدف هذه الكلمة أن تحصر هذه الدراسات أو الشروح ، وحسبها أن تشير إلى بعض منها ، واعتمادنا فى ذلك على تحقيق د. عبد المجيد دياب لمعجز أحمد ، وبعض هذه الكتب مع المتنبى ، وبعضها شديد التشنيع عليه، وطرف منها يلتزم «الوساطة» وكما هو حال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى، الذى صبغت مهنته قاضيا طريقة حكمة فألف الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وقد سبق أن ذكرنا ابن جنى . وله شرحان ، وللمعرى شرحان ، والواحدى ،وابن فورجة ، والتبريزى ، والسمعانى ، والأعلم الشنتمرى . والإفليلى ، والأنبارى ، وابن وكيع ، والعكبرى ، والدانى ، والخوارزمى ،

والعروضى ، والربعى ، وابن القطاع الصقلى وابن سيدة والحاتمى ، والجزرى ، والعميدى وغيرهم ، كما شرحه حديثًا البستانى ، والبرقوقى ، وإن كان الأخير أفاد من شروح قديمة تنخل منها ما تنخل ، وذاع هذا الشرح وطبع مرات متعددات .

ولا تكاد تخلو دراسة عن شعراء العربية من اسم المتنبى أو الاستشهاد بشعره ، وربما كان الكتاب الإمام ، كتاب شاكر عن الشاعر ، فهماً واستيعاباً ، وتذوقاً للشعر ، أما كتاب طه حسين عنه «مع المتنبى» فليس أفضل كتب طه حسين ، وفيه نظر كثير من فهم الدكتور للشعر وصاحبه ، وربما كان الرجل ينظر إلى كتاب (بلاشير) ، وهو مثل غيره من المستشرقين يباشرون العربية وخاصة شعرها بلسان أعجمى ، ونفوس أشد عجمة أحياناً، حيث لايبلغ غور الشعر العربى إلا أصحاب اللسان والأفذاذ منهم خاصة ، وقد اعترف غومث الإسبانى بشجاعة بهذه الحقيقة رغم نفاذه فى فهم المتنبى ، فقال إن المتنبى خلق عالما ربما يعسر علينا نحن الأوروبيين النفاذ إليه،وهى كلمة حق بريئة لأن المتنبى محير فى ذرع القلة أن تغوص معه ، وإن كانت له الآيات البينات فى حكمه السائرة ، لكننا نأخذ منها بقدر حظنا من الفهم والفطنة ، كما أن المتنبى ، فيما نعتقد كان يصوغ الفكرة الشاعرة فى قالب كان ينتظر هذه الفكرة ، فهى تخرج وعليها ميسمه غير مموهة ، حيث هى موشوجة بلحمة ودمه وأعصابه ، وإن كانت فيها إثارة من كلام سابق .

ومن الدراسات المتعمقة عن المتنبى وشعره ما كتبه العقاد منجمًا ، عن فلسفة الشاعر وعن صنعته ومقارنته بالمفكرين العالميين ،سابقًا بهذه المقارنة المدرسة الأمريكية ورائدها رينيه ويلك بعقود من الزمن ، وكان الغالب على المقارنات المدرسة الفرنسية التى تحتم التأثير والتأثر ومسالكه ، وكذلك موازناته بين المتنبى وأبى تمام حيث ارتأى أن للأول عالما ، وللثانى إجادات ، وأسهم المازنى بدراسات جيدة عن المتنبى وفلسفته ، وشعره فى حصاد الهشيم ، ولعل مثل هذه الدراسات كانت تؤكد فى نظر أصحابها ومعاصيرهم ، أن التجديد الذين يدعون إليه له سند ركين من التراث الذى يمثل سلامة الشعر وسلامة الطبع ، ويرون أيضًا أنهم يكتشفون مناطق غير مأهولة فى النظر النقدى ، كما هو الحال فى دراساتهم لابن

الرومى وأبى العلاء ، والمتنبى وغيرهم ، وليس من هدف هذه الكلمة استقصاء الدراسات عن المتنبى. فهى تحتاج إلى ببليوجرافيا يحرز بها صاحبها درجة جامعية.

ولديوان المتنبى بابة رحبة فى الأندلس ، لا تقل عن اهتمام المشارقة به ، وربما كانوا هنالك وراء البحر يريدون أن يقولوا بلسان الحال أو المقال إن شئت - نحن وإن شطت بنا الديار فإن لنا رحمًا ماسة بالمشرق ، وربما فقنا المشارقة فيه ، ولعل إقامة المتنبى فى مصر مهدت له أن يلتقى بطلبة العلم وشيوخه من أهل الأندلس ؛ حيث كان للمتنبى ما يمكن تسميته «صالون» ، وكانت الرحلة دائبة فقد تلمذ له وسمع منه أبو بكر الطائى ، وإبراهيم المغربى ، وزكريا بن الأشج وهو الذى حمل معه ديوان المتنبى إلى الأندلس ، وأثر هذا الرجل فى تلاميذه النابهين مثل منذر بن سعيد البلوطى ، وابن الفرضى ، وكلاهما علم فى بابه ، وقد شرح ابن الأشج ديوان المتنبى . وإن كان لم يصلنا شرحه ، لكنه - بلا ريب - تناثر فى مؤلفات الأندلسيين فيما بعد ، وقد رأينا أكثر من واحد يلقب بالمتنبى من شعراء الأندلسيين، وربما كان ابن دراج القسطلى أهم شاعر تأثر بالمتنبى فى معارضات الأندلس له وهى كثيرة - من أشهرها الرائية «باد هواك صبرت أم لم تصبر» وقد عارضها شوقى حديثاً فى قصيدته عن الأزهر ، وشتان بين الشعراء الثلاثة فى كل شىء ، فالمتنبى لا يلحق شأوه ولا غباره ، وماذاك إلا للنفحة ، أو الفحولة البادية فى كلام صاحبنا شاعر الكوفة العظيم ،وفى كتاب «أدب ونقد» لكاتب هذه السطور موازنة بين المتنبى وابن دراج .

لاينبغى أن تؤخذ الدواوين القديمة والمعاصرة بموضوعات القصائد أو بالأحرى بعناوينها ، لأن قصيدة المدح أو الرثاء أو ما يسمى بشعر المناسبات ، إنما هى من صميم الشعر الصادق وخاصة من مثل المتنبى ، فضلاً عن أن فى تضاعيف القصيدة تصويراً لصاحبها وتدسساً خفياً لمكامن هذه الشخصية ، وهكذا كان شعر المتنبى . . إنه إهابه وتجاليده ، ومعارف وجدانه .

وصياغة المتنبى صياغة نادرة ، وصفه الناس بأنه هَجَّام على المعانى ، وهذا صحيح ، لكنه لا يهجم ، إلا وقد غدا شاكى السلاح لمنازلة عنيفة ، تؤدى

فـرائض الفكرة وفرائض الفن ، وكـان له من مـتانة طبـعه مـا يبنى بها جـواسق وحصونًا ، لا يتسلـل إليها وهى إلا كما يتسلل إلى أى كـائن تجرى عليه أعراض النقصـان الذى هو خصيـصة بشرية ، لكن سلمت له جـواسقه وحـصونه مهيـبة جليلة، حيث كان شـعره أقرب إلى الجلال منه إلى الجمال ، وإن كـان لم يتحيف حق الجمال ، لأنه الجمال العاطل الحـالى بالقوة والصدق ، حيث كان كلام بعض نظرائه يعرف «مضغ الكلام وصبغ الحواجيب» .

ويشى ديوان المتنبى بله يصـرح بدمامـة الأمارات الموكوسـة التى شهـدها وغدا شاهد صدق عليـها . وشد الرجل حيازيم راحـلته باحثاً عن أميـر ماجد فى زمن أفلت فيـه شمس المجادة ، وحفل بكل عـبد فى مسلاخ حـر ، وارتأى فى سيف الدولة قريناً له فى مجـادنه وفى فروسيته ، وفى ذياده لعلوج الروم ، يصـرخ فيه الدم العربى ، وكان حزن الشاعر جليلاً بقدر أحزان أمته ، وهوان أمرائها ، وكأنه يشاطرنا حزننا من وراء الغيب !!

لزوميات المعرى

هذا ديوان رائد فى تاريخ الشعر العربى ، وتمتد ريادته حتى العصر الحديث ، الذى شهد ثلاثة دواوين ، كان أولها «لزوميات مخيمر» للشاعر العبقرى أحمد مخيمر ، ونصّ على أنه على درب أبى العلاء ، وثانيها للشاعر عبد العزيز السعدنى ، وهو بقال من مدينة الزقازيق ، ثالثها «لزوميات أبو همام» لكاتب هذه السطور ، وتابع هذا النمط فى دواوينه الأخرى .

وحين نقول ريادة أبى العلاء لا نعنى أنه غير مسبوق ، فقد شرع له الطريق جمهرة من الشعراء مثل ابن أخت تأبط شرا فى «لاميته» المشهورة ، وكُثير عزة فى «ثائيته» ، وابن الرومى الذى ركب منه ضروباً من القول ، لكن هؤلاء لم يجعلوه ديدنهم فى كلامهم ، ولم يتخذوه مطية فى كل ما كتبوا ، بل كانوا يركبونه لماما ، ولم يفردوا له الدواوين ، غير أن شيخ المعرة ركبه قاصداً على حروف المعجم ، فى مجلدات ديوانه الممهور بهذا الاسم ، ويعنى أنه يلزم نفسه ما لا يلزمها من عدم الاكتفاء بحرف روى واحد ، من باب السعة والاقتدار ، وكان محصوله فى اللغة يسعده فى هذا ، واللغات الأجنبية تعرف هذا النمط ، وتسميه «القافية الغنية» 'La Rima Rica' ، كما يعرف النثر العربى مثل هذا الضرب . ومنه «المقامات اللزومية» للسرقطى الأندلسى ، وكأن المعرى وقرناءه - وليسوا فى قامته، وقليل ماهم - يرون غير اللزوميات ما يمكن أن يسمى «الشعر الحر» بمعنى آخر غير المعهود الآن ، وقد ركبه أبو العلاء أيضاً فى ديوانه الأول «سقط الزند» .

وفى حدود ما أعلم ، كان المعرى أول شاعر فى العربية يطلق على مجموعاته الشعرية أسماءً محددة ، على غير ما هو متواتر قبله ، مثل ديوان فلان من الناس، وما بعده أيضًا حتى عرف العصر الحديث التسميات ، وكان المعرى رائداً حتى فى هذه المسألة الشكلية ، وربما كانت غير شكلية فى حالته ، فسقط الزند أول كلامه فى المنظوم ، واللزوميات جاء مصلّيا بعد ذلك .

ولقد ارتبط المعرى بالتاريخ الأدبى لهذه الأمة وعسير على التخيل أن يسقط من ذاكرة الأيام من حسب الأيام وحاسبها ذلك الحساب العسير وهَبه سقط ، فماذا يبقى فى هذا التاريخ الأدبى ، إلا النفر القليل من سابقيه : ابن الرومى ، أبو تمام، أبوالطيب ، الشريف الرضى وإخوان هذا الطراز ، لعل الخريطة الشعرية كانت ستتطلع إليه ليسد الثلم الذى يحدثه غيابه ، ولعله أيضاً - وهو الفارك للحياة التى يسميها «أم دفر» لنتانتها - قد سخرت منه الحياة كما سخر منها طوال أيامه ، فأرخت له فى حبال العمر ، ليخنق السادسة والثمانين وكان يتمنى أن تنجذم هذه الآصرة له ولغيره :

فليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

وهو الرجل الذى همدت فيه نوازع اللحم والدم أو على الأقل كانت موزوعة لامدفوعة ؛ نظراً لبنيانه الوهنان ، وحرمانه من لذائذ الطعام والشراب ، اقتداراً منه ، وزهادة ، قد أحدقت به السجون الثلاثة كآبة وعجزاً :

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدى ناظرى ، ولزوم بيتى وكون النفس فى الجسم الخبيث

غير أن وجدانه المتوفز ، وعقله الجبار كانا يفسحان له أن يشرف على الوجود والعدم من علٍ، وأن يراقب الأشياء مراقبة الندس اللبيب ، وكانت إحاطته بالعلوم والمعارف فى زمنه حرية أن يتنفس من خلالها كل نَفَس وكل نَأْمة .

وجدت السليقة العربية فى أبى العلاء نموذجها الذى يمثلها أوفى تمثيل ، فهو ينتمى إلى الأرومة العربية نسباً وداراً ، وثقافة ، وعاش عصرا مفعمًا بجلائل الأحداث ، ونالت قريته «المعرة» طرفاً من هذه الحوادث ، وتدخل فيها الشاعر متشفعا فحقن الأحداث قبل أن تتفاقم ، ومع ذلك ظل نادما أن خرج من محبسه،وقرية المعرة غدت ذائعة الصيت ، بفضل شاعرها ، وكأين من مدائن كبرى تغبطها وتحسدها هذا الشرف الرفيع .

تحدث الناس قديمًا وحديثًا عن ثقافة أبى العلاء وتراحبها ، كما تحدثوا عن عقيدته ، بعضهم يرفعه إلى مصاف الملائكة المقربين ، وآخرون يهوون به إلى

مدارك المردة والشياطين ، غير أن الرجل كان مثل الناس من ماء وطين ، لكنهم اصطلحوا على ثقافته وشاعريته ، وزهادته ، وحسبه هذا .

كانت «اللزوميات» فتحًا مبينًا فى الشعر العربى لا بتشكيلاتها الموسيقية فحسب، وإن كانت واردة ، ولكن بما تثيره وبما تحتويه ، واستن الرجل فيها لنفسه مهيعًا خاصًا ، طرقه بعضهم قبله وبعده لكنه المتفرد «وماقصبات السبق إلا لمعبد»، ونعتقد - والمعرى من الشعراء الأصدقاء الذين نعود إليهم دائمًا - أن اللزوميات هى الشعر الحقيقى للمعرى ، أو وجهه الأول حين تزدحم الوجوه . وأن «سقط الزند» يمثل ملامح أولية أو «قرزمة» المعرى مع نضجها ، نقول ذلك وفى وعينا ما قاله النقاد عنها إنها نتيجة اللعب والعبث ، أو هى فكر لا تسرى فيه أعراق الشاعرية كما ألفها الناس ؛ لأن الفكر فى رأينا دائمًا وجه أساس فى بناء الشعر ، ولم يكن المعرى بعيدًا عن هذا الرأى ، حين نعت لزومياته بأنه توخى فيها صدق الكلمة ، ونزهها عن الكذب والميط ، ولا يعنى ذلك صدق الواقع وجفافه وبرودته لأن الخيال صدق أيضًا ، ولم يكن المعرى على كل حال من رجال الخيال الجامح المتوثب ، وإن كانت له في اللزوميات لقطات من غريب الخيال ، حين تصور مثلاً أنَّ التراب الإنسانى تتبدل به الاحوال ، ويتغرب بعد بلا الأجساد ؛ حيث يقول:

ويحمل من دارٍ لأخرى ومادرى ثواها له بعد البلى يتغرب

ومثلٌ يجزئ عن أمثلة ؛ لأن مثل هذه الغرائب تساوره كثيرًا فى كل اللزوميات.

تحدث المؤرخون عن حجم اللزوميات وعدد الكراسات التي كتبت فيها ، وأجملها أستاذنا الدكتور حسين نصار فى صدر تحقيقه لها ، والمحك أنها كثيرة ، والاختلاف فى عدد الكراسات لايعتد به ، حيث لاندرى حجم كل كراسة ولا ما حوت ولكننا ندرى أنها حظيت باهتمام الناس قديمًا وحديثًا روايةً ودرايةً ، حيث شرحها البعض أو أجزاء منها ، كما جعلها الباحثون موضوعًا لرسائلهم الجامعية ، وآخرهم رسالة تحت إشراف كاتب هذه السطور للباحث المجتهد محمود الطويل عن «اللزوميات : دراسة أسلوبية» بعد أن درس فى الماجستير شعر الشريف الرضى: دراسة أسلوبية.

وعسير أن يعدد المرء الدراسات التى قامت حول المعرى ، لكننا لا نغفل دراسات طه حسين ، والعقاد خاصة فى كتابه «رجعة أبى العلاء» ،وتصورها خيرى شلبى رواية ثانية للعقاد بعد «سارة» . ولكن العقاد احتذى فيها المعري فى رسالة الغفران ، وهما «رجعة أبى العلاء» نمط فريد فى الدرس الأدبى والنفسى المعاصر ، وبين يدى دراسات كثيرة بمناهج متعددة لدراسة المعرى وشعره ، ومنها أيضاً عدد خاص من مجلة «الهلال» يونيو ١٩٣٨ ، اختص بجوانب متعددة من أبى العلاء ، وكتبها أفذاذ ذلك الزمن الجميل .

ولدى أيضًا طبعات متعددة من «اللزوميات» ، أقدمها وأهمها طبعة حجرية منقولة عن مخطوطة كتبها عبد الواحد بن عبد الرفيع أواسط صفر ٦٣٩هـ وحضر لمقابلتها محمد بن عبد الجبار بن محمد المالكى ، لخزانة الأمير أبو زكريا المقدسى، والطبعة الحجرية تمت فى الهند ١٣٠٣ هـ فى المطبعة الحسينية ، وعليها هوامش وتعليقات شديدة الفائدة منقولة من المخطوطة ، ثم طبعت فى مطبعة الجمالية بمصر ١٩١٥م - ١٣٣٣هـ ، توفر على تصحيحها وتفسير غريبها أمين عبد العزيز ، وفى سنة ١٩٢٤ طبعها أمين عبد العزيز الخانجى بتقديم كامل كيلانى ، فى جزءين من مجلد واحد ، وثمة طبعات أخرى ، آخرها كما ذكرنا آنفًا ١٩٩٢ بإشراف دكتور حسين نصار ومجموعة من تلاميذه ، وأفاد من الطبعات السابقة ، وبخاصة الطبعة الحجرية .

والملاحظ عمومًا على تلك الطبعات خاصة فى الشروح التفسير اللغوى القليل جدّا ، وربما يأتى الشرح للكلمات المعروفة ، وتترك الكلمات التى فى حاجة إلى شروح ، ولا تسلم تلك الطبعات أيضًا من بلاءات المراجعة المطبعية التى هى ديدن القائمين على الطبع الآن إلا من رحم ربك وهم قليل ، كما تتفشى أخطاء العروض وتسميات البحور بغير أسمائها الصحيحة ، ولعل مركز تحقيق التراث ورئيسه عالم جليل (د. حسين نصار) يتدارك هذا الفائت ، وفى نسختنا تصويبات فى اللغة والعروض ، نقدمها حسبةً لوجه صديقنا أبى العلاء ، وصديقنا حسين نصار .

للزوميات سحر خاص يقع فى شباكه الناس من أهل الشعر والأدب ، وربما

يقبل عليه من كان فى الشرخ من الشباب ، حيث يشعل فى نفوسهم - وهى مشتعلة - الغضب والقنوط ؛ لأن الرجل - رغم بعده عن شرة الشباب إبّان نظمها- كان عارم السخرية ، عاتى القنوط ، فيعوذ به الشباب الذين لا تعطيهم الحياة بقدر طماحهم وآمالهم فيستديرون الدنيا وهم أشد تعلقًا بها وإقبالاً عليها ، حيث الظمأ أشد ، وهكذا يظل أبو العلاء يسخر منا ومن ذاته ومن قوله الذى نردده معه :

أف لما نحن فيه من عنت ... فكلنا فى تحيل ودلس!!

ما النحو ما الشعر ما الكلام وما ... مرقش والمسيب بن علس؟

أو من قوله :

أعللت علة «قال» وهى قديمة ... أعيا الأطبة كلهم إبراؤها

ولعله كان ينعى «القول» وهو عليل أجوف ، حين لا يجدى القول شيئًا بجانب «العمل» ، كما نعى شيخه المتنبى : «قد أفسد «القول» حتى أحمد الصمم» ، لكننا مضطرون إلى «القول» ولو عليلا وإلا :

مل المقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ووجدت دنيانا تشابه طامثًا ... لا تستقيم لناكح أقراؤها

هويت ولم تسعف وراح غنيها ... تعبًا وفاز براحة فقراؤها

وتجادلت فقهاؤها من حبها ... وتقرأت لتنالها قراؤها

وإذا زجرت النفس عن شغف بها ... فكأن زجر غويها إغراؤها

ولعلنا نرضى أبا العلاء بعض رضى بهذا «القول» عنه ، أو لا نرضيه فالأمر لديه سواء ، لأنه أخذ علينا متوجهنا حيث صوته يهتف من وراء القرون :

إن مدحونى ساءنى مدحهم ... وخلت أنى فى الثرى سخت

الحماسة البصرية

هذا كتاب غبين !

ومؤلفه أشد منه غبنًا ، وأعدى ذلك الغبن محققه !!

والكتب كالناس بعضها مجدود ، وبعضها غير مجدود ، يتقدم بعضها وحقه التأخر لو أقسطت الموازين ، ويتأخر منها كثيرًا من يستحق التقديم والصدارة .

لم يرزق كتاب «الحماسة البصرية» كِفْله الواجب من العناية كما رزقت «حماسات»أخر ، وحقها ذلك الرزق الذى تيسر لها على يد جلة من العلماء والمحققين قديمًا وحديثًا ، كحماسة أبى تمام ، والحماسة الصغرى ، وحماسة البحترى ، وحماسة ابن الشجرى وبقية هذه القائمة من الحماسات وما هو من طرازها أو قريب منها مثل كتب المختارات الشعرية ، حتى فى العصر الحديث ، حين نشرت «الحماسة البصرية» قبل هذه النشرة كانت شيئًا رديئًا لا يجوز الاتكاء عليه أو الثقة به .

أما الغبن الذى لحق بمؤلفها ، فشىء غريب ، وقَدْك أن المحقق أجهد نفسه فى التنقير عنه ، فلم يظفر بكبير طائل ، إلا ما يكون من طراز التقريظات ، والجمل المدحية التى لاتفيد غناء ، ولعل اسمه هو الذى نجا من غيلة النسيان ، فهو أبو الحسن على بن أبى الفرج البصرى ، ويعجب المحقق كيف أهمله أصحاب التراجم، ولم يكن الرجل نكرة ، وإن كان قد عثر على اثنى عشر تقريظاً ألحقها - مشكوراً - بآخر الكتاب ، وهى كما قلت جمل متشابهة تكرر نظائرها فى ترجمات أخرى ، وحسبك أن ترى مصداق ذلك فيما يقوله ابن العديم عن البصرى :

«الشيخ الأجل الكبير الفاضل العالم الكامل ، جامع أشتات الفضائل . . لسان الأدب ، وحجة العرب ، الراقى فى مدارج العلوم إلى أعلى الرتب . . .» والمؤرخ صديق ومعاصر للبصرى ، ومع ذلك لم يذكره فى تاريخ حلب ، وهما «بلديّان»،

لا أود أن أقول : إن المعاصرة حجاب ، ونَفَس المؤرخ على الأديب ، غير أنى أضيف إلى عجب المحقق - إبراءً للذمة - أن تاريخًا أو جزءًا من ذلك التاريخ لم يصل إلينا ، وفيه ترجمة للبصرى ، وإذا طبقنا مقاييس العصر الحاضر فربما لا نجد ذكرًا فى كتب النقاد لبعض الشعراء الذين ليسوا من سِنْخ هؤلاء النقاد ، فابتلعوا ألسنتهم ، وربما يرد على الخاطر هنا الدكتور محمد مندور الذى أرخ للشعر المصرى بعد شوقى ، وأغفل شعراء لهم وزنهم لاختلاف الاتجاه ، مثل أحمد مخيمر مثلاً . فهل نقيس الحاضر على الماضى ، ونرى لدى ابن العديم شيئًا من ذلك ؟ لكننا لانسير فى هذا التساؤل إلى النهاية ، لأن مؤرخ حلب قرظ «بلديه»، وإن كان لم يؤرخ له ، مع أنه أرَّخ لرجال أقل شأناً منه - كما يقول المحقق - وأغفله كذلك ابن خلكان وهو معاصره ، ولم يستدركه ابن شاكر فى «فوات الوفيات» وتجاهله الصفدى فى «الوافى بالوفيات» !!

حتى تاريخ وفاة البصرى لم يتم تحديدها بدقة ، مع أن الأمة العربية تهتم بتاريخ «الوفيات» أشد من اهتمامها بتاريخ الميلاد ، لأن الذى يكون من غمار الناس ويشتهر تعرف وفاته أكثر مما يعرف ميلاده ، حتى محقق الكتاب أصلح تاريخ الوفاة على صدر كتابه «المتوفى بعد سنة ٦٥٨هـ» بدلاً من ٦٥٦هـ ، المهور بها الكتاب ، فهل بعد ذلك غبن لرجل قرظه اثنا عشر عالماً من خيرة علماء الأمة!!

كان الرجل فى زمن الفتنة المبيرة ، وعاش لحظاتها الأخيرة ، من هجوم التتار الكاسح على الديار الإسلامية بغداد وبلاد الشام ، وقتل الملك الناصر فى الهجوم على حلب ، وقيل إن البصرى كان مع الملك وقتل ، مع أن هذا الرأى مرَّض فيه المحقق ، ورجح أن وفاته بعد سنة ٦٥٨ هـ .

سرى الغبن بعدواه إلى المحقق وآن أن نذكره : وهو الدكتور عادل سليمان جمال ، أستاذ الأدب العربى بجامعة أريزونا بأمريكا ، منذ أمد غير قليل ، وأسهم بقسط وافر من التحقيق ، فقد جمع شعر الأحوص الأنصارى وحققه ، كما حقق شعر حاتم الطائى ، والمنتخب فى محاسن أشعار العرب - نال هذا التحقيق جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٩٦ ، كما حقق كتابه الذى نحن

بصدده الآن ، وأسهم أيضًا فى جمع مقالات شيخ العربيـة محمود محمد شاكر ، ونشر مجموعة كبيرة من أشعار أبو فـهر ، مشفوعة بتقديم ضاف وتحليل نقدى ، إلى جـانب مـقالاتـه المتنوعـة فى الشعـر واللغـة والنقـد والمخطوطات بالعـربيـة والإنجليزية.

ورجل هذه جهوده كان محله الصدارة ، وإن كان يعـرفه حاقّ المعرفة المشتغلون بالأدب والنقـد والتحـقيق ، ولكن ربما لبـعده عن الوطن السنين ذوات الـعدد ، وزيارته له غبـا ، حجب عن جـمهرة النـاس فضلاً وعلمـاً ، والرجل أيضاً غـير مقتـحم للزحام ، وموارد الإعلام ، قـانع ومقتنع بمتعـته التى يعرفهـا من ذاقها ، حيث يكشف عن مادة شاردة ، أو آبدة قصية فى اللغة ، أو يكتشف شاعراً طمس الزمن اسمه ، هذه المتعة لا يملك أحد حجبها عنه ، ولا الإدلال بها عليه ، وهو عاكف على هذه المخطوطات منذ كان طالباً بالمرحلة الثـانوية ، واكتشف مخطوطة ذلك الكتاب ، وتلمذ لأعلام العصر : فؤاد سيد ، وعبد السلام هارون ، والسيد صقر ، وأبو الفـضل إبراهيم ، وحسن كامل الصيـرفى ، والشيخ الأكبر مـحمود شاكـر - الذى عاشـره أربعين حـولاً كريتًا، وصـاحب رفيـقه العلامـة محـمود الطناحى.

غير أن ثمة غبنا من وجه آخـر ، ربما لا يكون للمحقق سبب ظاهر فيه ، وهو أن المحقق استجـابة لرغبة «أبو الفضل إبراهيم» تقدم بكتابـه إلى لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشـئون الإسـلامية سنة ١٩٧٠ ، ومـضت ثمانى سنـوات حتى خـرج الجزء الأول مليـئاً بالأخطاء ، وبرئ مـنه المحقق ، بعـد مشكلات ذكـرها لامجـال للإفاضـة فيـها ، ثم كـان وجه آخـر لحق بالكتاب وبالمحـقق ، وهو أنه صدرت نشـرة له فى الهند بتحـقيق مخـتار الدين أحمـد ، وفيه من الغـرائب ما لايخطر على بال، وحسبك أن حذف المحقق نصف الكتاب ، مكتفيا من المقطوعة ببيتها الأول ، وغابت المراجعة والتحقيق والضبط والتخريج ، والتراجم للشعراء ، ولا أظن أننى أتحف القـارىء بشىء من هذا إلا بأن أرجـو منه أن يراجع مـقدمـة عادل سليمان ، وهو لم يأت إلا بنماذج صارخة من ذلك التحقيق الهندى البديع.

وكان يمكن للمحقق أن يهاجسه خاطر التقاعس عن النشر لولا أنه ارتأى - إلى

جانب التحـقيق الغريب - أن الكتاب يـمكن أن يحقق أكثر من مـرة ، خاصة مع اكتـشاف نسخ جديدة أو رؤية جديدة ، وهـذا ما كان من عادل سليـمان ، الذى نشط لنشرته ونحن معه فيما ارتأى ، وكأيِّن من كـتاب تعاوره كثير من المحققين ، لكن نشـرة واحدة تأتى تنسى سـوابقهـا كمـا صنع أبو فهـر فى «طبـقات فـحول الشعراء» .

وقف عادل سليـمان على نسخ كثيـرة من المخطوطة ما بين خطية ومـصورة ، بلغت ثلاث عشـرة ، عرف أكثـرها ، واعتمـد ثلاثًا هى : نسخـة راغب باشا ، وكـانت فى حيـاة المؤلف ، وهى العـمدة ، ونسـخة عـاشـر أفندى ونسخـة نور عثمانية، وللمحقق كلام جيد عن هذه النسخ وغيرها ، لا يجزئ عنه كلامنا .

وعادل سليمان خلق ليكون محققـاً ، فالمخطوطات عشقه أخلص لها فأخلصت له ، وأفـضت إليـه بمكنون أسـرارهـا ولديه قـدرة فـذة على قـراءة خطوطهـا ، واقتـراحات الـقراءة ، يجـيل بصره فى النص فـيدرك زبدته ، ويعـرف غثـه من سمينه، وقد سلخ من عمره سنوات ، لا يكل ولا يفتر عن جهد ، وصبر ، وربما يفتى بعضنا عفو الخاطر ، لكنه - وهو المحقق - يبحث فى المظان ، عارفًا بواطنها المضنونة بها على غير أهلها ، ومنهم عادل سليمان ، ومحمود الطناحى - نور الله ضريحه - .

أفاد البصرى من مخـتارات سابقة ، أو من حماسات سالفة أقربهـا إليه حماسة «أبو تمام» - لا أحب إعراب الكنى ، إنما أبقيهـا على حالة واحدة - وكسرها على أربعة عشر بابًا هى الحمـاسة - المديح - الرثاء - الأدب - النسيب - الأضياف - الهجاء - مذمة النساء - الصفات والنعوت - السير والنعاس - الملح والمجون - ما جاء فى أكاذيبهم وخرافاتهم - ملح الترقيص - الزهد والإنابة .

ولعل هذه هى أبواب الشـعـر وأغـراض القـول ، وإن كـانت بعض الدلالات تختلف ، فالأدب - مثلاً - يعنى التخلق بمكارم الأخلاق ، ولعل المؤلف أيضًا لم يخرج عن الإطار العام الذى تختم به الكتب عادة وهو الزهد والإنابة ، أو ما كان يسميه الشعراء والوشاحون الأندلسيون :المُحَصِّات ، والمكفرات ، لكننا نلمح إلى أى مدى كـان العالم المسلم - والصـالح منهم - لا يتورع عن ذكـر الملح والمجون

والترقيص ، وفى الأخير شعر لن تسمح به الأعراف التى تواضع عليها من يخونوها فى وحدتهم ، وحسبك أن ترقص امرأة «هنها» بكلام راقص ، لن يزيد من عدد الطالحين واحدًا ، أو امرأة ترقص ولدها متمنية أن تراه يقعد مقعد الرجل من المرأة بكلام صريح ، تلك أيام قد خلت حين كان بنيان الأمة قويًا غير وهنان لا تؤثر فيه مثل هذه الأفاكيه ، يفتح صدره وعقله للرياح فلا تعصف به ، بل يقابلها ببسمة وحسبها هذا .

والبصرى - وإن تقيل حماسه أبو تمام - خرج عنه مستقلاً ومستنًا طريقه ، إذ أضاف ثلاثة أبواب ، هى : الأكاذيب والخرافات وملح الترقيص والزهد والإنابة ، وتوسع فى الملح ضامّا إليها المجون ، كما أنه يطيل أحيانًا فى مختاراته ويذكر مقطعات بينها صلة ما ، مثل : تشابه المعنى ، وتداخل الشعر أو لأدنى ملابسة، وإن كان يخرج عن الباب .

والمختارات - عامة شعرية ونثرية - أحدث صيحة الآن ، وتقذف المكتبات العربية والعالمية بأعداد وفيرة منها ، وهى طريقة قديمة عرفها العرب بكل أنواعها، تدل على ذوق المختار ، وذوق العصر ، والقارئ الذى تتوجه إليه ، وحفلت المكتبة العربية - حتى فى العصر الحديث - بنماذج جيدة منها ، وإن كان بعضها يختار من الشعر الإنسانى كله منتخبات ، وربما كان صنيع العقاد فى «عرائس وشياطين» دليلاً على ما نؤم .

وحماسة البصرى تكاد تبلغ ضعف حماسة أبو تمام واعتمد المؤلف على دواوين ومجاميع شعرية ، بعضها حفظته الأيام ، وبعضها سقط من ذاكرتها ، ولولا البصرى ما وقفنا عليها ، وتبلغ القصائد والمقطعات فى هذه النشرة تسعاً وسبعمئة وألف قصيدة ومقطعة .

والمحقق يقف على هنوات للمؤلف يفردها بالذكر سواء أكان ذلك فى المنهج ، أم فى نسبة الشعر ، وروايته ، ناخلاً الآراء المبثوثة ، فى تجرد وحيدة دون أن يصيبه ما يصيب المحققين والمؤلفين عادة من الانحياز لموضوع درسهم ، وكان هذا ديدنه - ولايزال - منذ طراءة السن ، وشرة الشباب التى تدفع إلى الحماسة ، ولكنها كانت حماسة موزوعة فى كل حال .

أضاف عادل سليمان زيادات نسخة «عاشر أفندى» ، وزيادات نسخة «نور عثمانية» فضلا عن التقاريظ ، لكن الشيء الضخم - والعمل كله ضخم (وصل إلى ٢٢٨٦ صفحة من القطع الكبير) - الذى عاناه المحقق هو تلك الفهارس الجامعة التى تنوء بها العصبة من الرجال ، فى زمن لم يكن يعرف الآلات الحاسبة والدقائق التكنولوجية- بلغت ستة عشر فهرساً ، نذكر منها فهرس الأشعار ، والشواهد ، والشعراء والأعلام : الأفراد والأمم والقبائل ، والخيل ، واللغة وهو أضخم هذه الفهارس وأنفسها شأنًا ، وفيه من الغريب والغرائب ما يجب الوقوف عنده ، وفهارس النحو وضرائر الشعر وفيها كلام جيد ، وقد صحح كثيراً من الأوهام اللغوية ومن نسبة الأبيات ومن صوابها ورواياتها المتعددة ، ومن هذه التصويبات نسبة الأبيات المشهور نسبها إلى عوف بن محلم الشيبانى وفيها ! .

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعى إلى ترجمانْ

حيث عزاها إلى سميه «عوف بن محلم السعدى» ، وهو عباسى بينما قرينه جاهلى ، وقبل هذه الفهارس ثمة شرح للقصيدة أو المقطعة ، مقترن بها فى الهامش مع ترجمة للشاعر وتخريج لأبياته .وناقش عادل سليمان الدكتور مصطفى الشكعة والدكتور عز الدين إسماعيل مناقشة موضوعية ، رائدها البحث عن الحقيقة ، حين هوّن الأول من قيمة الحماسة البصرية ، وأنها من جملة الحماسات الكثيرة ، ورد المحقق هذه النظرة بأن البصرية أضافت واحداً وخمسين شاعراً وست شواعر إلى ما نعرفه من الشعراء القدامى وحسبها هذا ، ورد على تهوين عز الدين إسماعيل من مؤلف الحماسة البصرية ، فى اختياره أبياتًا مفردة ، مع أنها قليلة جدا - كما أحصى المحقق - بلغت ثلاثة مواطن فلا ينبغى اتخاذها ظاهرة ، مع أن المثال الذى ذكره عز الدين مقترن ببيت آخر فى نسخة «راغب باشا» ، وثمة ملاحظة أخرى لعز الدين حول بعض الأبيات المختارة مرتثيًا غثاثتها، ورد عليه المحقق مفصلاً القول فى الغرض الذى تساق فيه الأبيات من الهزل والمجون ، ويقتضيان مهيعًا من القول غير جادّ الأغراض ورصينها، فضلاً عن أننا نرى أن ذوقنا لا يجب أن نسحبه على ذوق الأعصار الخوالى ، فربما يكون ما نستهجنه ممدّحًا لدى القدماء ، دون أن يعنى ذلك عدم نقد ذوقهم فنحن نملك من

الحرية ما يملكـون، ولنا أن نرى فى الشعر غير مـا يرون ، ولكن المثل الذى سيق هنا مستـهجنًا ، يجب وضـعه فى إطاره الماجن العابث الذى يشـد لحية المتـحنثين الذين يجبرون الشاعر المجهـول على تعلم القراءة والمواريث ، ولعله كان أميّا ، أو عالماً بـالقراءة والكتـابة يتعـابث بلحى الحمـقى ، كمـا يقول المتنبى فى «قـافيّـته» الذائعة .

ومادة الكتاب مشرقية ، بل هى فى جملتها جاهلية وإسلامية ، وأموية نادرًا ، وعباسـية من ندرة الندرة ، بل إنه بعد النسخـة الأولى حذف من تاليها كـثيرًا من أشعار المتأخرين ، وأتى بها المحقق فى الزيادات ، ولسنا ندرى سر هذا الاختيار ، مع أنه متـأخر زمناً عن «أبو تمام» مثـلاً (٢٣١ هـ) والتالين له ، فإذا كـان لهؤلاء مندوحة فى وقوف اختـياراتهم عند أمد محدد فما مندوحـة البصرى ، إلا إذا كان يرى الفضل للمتقدم ، أو استن طريقة الاستشهاد الأدبى مثل عصر الاستشهاد عند النحاة ، وكـان يمكن أن تكون اختـياراته إضافـة متمـيزة عن سابقـيه ؛ لأنه من المتأخـرين حيث خنق منتصف القـرن السابع ، وقبله قـرون عديدة تتراحب فيـها الاختيارات ، التى لم تذكر المحدثين إلا لتشابه معـانيهم بمعانى المتقدمين أو صلتها بها ، ويزيد العـجب أكثر أن يتـجاهل الأندلس تمامًـا ، إلا من ذكره يوسف بن هارون الرمادى ، وأسقطه فى نسـخة تالية ، لقد أخذ المشارقـة على ابن عبد ربه مادته المشرقية - فى أغلبها - وقـالوا : بضاعتنا ردت إلينا ، فما باله يسقط أقاليم متعددة تسمى المغرب الإسلامى وفيه الأندلس والبرتغال - حالياً - وفيه شعراء من عصر بنى أميـة ، ومن بعده ، أجادوا وظفروا باستحسـان المشارقة حتى إن المتنبى يقول لصاحبه : أنشدنى لمليح الأندلس يعنى : ابن عبد ربه .

أما الرمادى ويلقب «بأبو جنيش» ترجمة للكلمة الإسبانية El Ceniciento نسبة إلى Ceniza وهى الرماد ، فـقد كـان شيوخ الأدب فى وقـته يقولـون عنه : فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة يعنون : امـرؤ القيس والمتنبى ويوسف الرمادى ، وقد توفى ٤٠٣ هـ ، وكان بيـنه وبين المتنبى تغاير وتعليـقات من كليهـما على شـعر الآخر ، ليست فى صـالح شعرهما على كل حال ، ويرى أنخل جونثـالث بالنثيا أن الرمادى لـيس نسبةً إلى بـلد يسمى رمـادة ، وإنما هو الصورة العـربية لكنيـته

بالإسبانية الدارجة أبو جنيش ، مثل هذا الشاعر كان على المؤلف الشرقى أن يعتد به وأن يدرجة هو وقرناءه الكبار فى مصنفه ، وربما كان الرجل يصنع ما صنعه بعض الأندلسيين من ذكر أدبائهم على سنة المشارقة ، كما فعل ابن بسام فى الذخيرة مثلاً ، وواحدة بأختها أو أشد منها ، وإن كان الشنترينى (ابن بسام) لم يغفل المشارقة حيث تحدث عن الإغارة أو السلخ للمعانى الشعرية ، ومصنفه حافل بذكر أمثال ابن الرومى والنواسى ، وحبيب بن أوس وإخوان هذا الطراز ، وقد جوزى البصرى بشىء مما فعل من التجاهل ، فتجاهله حتى من عاصره ومن تلاه، هل نشعر بشىء من الشماتة فيه ؟ ربما ، لكنها شماتة بيضاء تذكر له فضله ، وتوقره ، وتحترم منهجه وإن خالفته .

ومختارات البصرى - كغيرها - بابة كبيرة لدراسة ما أسماه القدامى «السرقات الأدبية» بتفريعاتها المتعددة ، أو ما يسمى حديثًا «التناص» وإن كان صديقى محمود الطناحى - رحمة الله عليه - ينكرها مستثقلاً ، لأن ورود المعانى المتشابهة - خاصة فى الحماسة البصرية - متعاقبة ومنصوصا عليها تفتح مجالاً للدرس النقدى عن أصالة الشاعر ، وتطور المعانى الشعرية ، وصياغتها ، والأخذ الخفى لشاعر من شاعر سالف ، وتصريف الكلام ، وحسن التأنى أو سوئه ، وقد وقفنا أثناء القراءة على كلام حسن للمؤلف والمحقق ، وربما كان رثاء أبو تمام لمحمد بن حميد الطوسى فى «رائيته» المشهور وسلخه بعض المعانى ، بل الأبيات الكوامل من شاعر غير معروف هو «أبو مُكْنِف» من هذه البابة وقد فطن دعبل الخزاعى إلى ذلك وإن كذب الناس دعبلاً ، والقضية لها نظائر فى الحماسة ، وتحتاج إلى تقصٍ رحب ، ربما يصلح مجالاً لدراسة جامعية ؛ شريطة أن يكون الباحث من الحفظة لا من أشباه الباحثين هذه الأيام .

هل برئ هذا السفر الضخم مما يمكن أن تختلف حوله وجهات النظر؟ لا نعتقد، وإن كان هذا الاختلاف يسيراً ، يقف فحسب لدى الجزئيات ، وربما كان الوقوف عندها من التحنث والتنطس الذى لا يريغه إلا أمثال عادل سليمان ، حيث يأخذ نفسه بكثير من الحرج العلمى المحمود ، وبسعة الصدر التى ترى الاختلاف فطرة إنسانية ، بأصل الخلقة قبل الاتفاق ، ولماذا ندور ونداور حول الاختلاف ،

وعادل سليمان نفسه فى خاتمة مقدمته المسهبة ، قال : «يجب على كل قارئ للكتب القديمة أن يعاون ناشريها بذكر ما يراه فيها من أخطاء ؛ لتخلص من شوائب التحريف والتصحيف الذى منيت به وتخرج للناس صحيحة كاملة» ، وهو يحتذى فى ذلك شيوخ المحققين فى عصرنا، الذين لا تأخذهم زعارة خلق ، ولا عزة بالإثم ، كبعض خفاف المحققين من الجامعيين ، وأشباههم . ولكننى معتقد أن فى بعض ما أذكره يمكن عزوه إلى أخطاء الطباعة ، وهى مما عمت بها البلوى. ورد ص ٥٣٠ بيت حاتم الطائى «الخالطون» وحقها النصب بالياء ، وإن كان للرفع وجه ، على تأويل نحوى ، لا نلجأ إليه إلا لضرورة ، وفى ص ٥٣٥ فى الحاشية بيت هو :

قد رضيناه فمت بدائك غيظا لا تميتّ غيرك الأدواء .

وصوابه حذف الهاء فى «رضيناه» أو بقاؤها مع حذف الفاء بعدها .

- ورد بيت الأعشى الهمدانى :

أيها القلب المطيع الهوى أنى اعتراك الطرب النازح

وهو من السريع ، صوابه «يا» للنداء ، وإلا كان صورة من المديد ، والقصيدة كلهامن السريع .

- ورد بيت خريم بن أوس ص ٥٨٩ ، وهو مع الأبيات للعباس بن المطلب كما استظهر المحقق ، وشرحها محمود الطناحى فى مقالة له بالهلال :

أنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاقت بنورك الأفُق .

وهو من المنسرح ، صوابه «وأنت» وربما صح على نية الواو ، غير أنى لا أسيغ حذفها ، ولو كان لها تأويل عروضى كالخرم .

- أبيات تنسب لآدم ص ٦١٠ وهو منها براء ، وحسبها الإقواء الذى فيها ، وهى «حائية» مضمومة الروى ، فيها «وقل بشاشة الوجه المليح» وحقها الكسر على الصفة ، ورأى لها أبو سعيد السيرافى وجهًا هو نصب بشاشة وحذف التنوين ، وهى حجة نحوية عروضية داحضة وإن كان المحقق استظهرها ، وأنا مع المعرى فى

روايته «وغودر فى الثرى الوجه المليح» وهى وجهة شاعر لا نحوى ، ومعروف أن المعرى من شيوخ اللغة والنحو والعروض فرأيه أولى وأشعر ، وإن كانت الأبيات كاذبة النسبة لآدم .

- ورد شعر لصالح بن عبد القدوس ص ٨٧٣ .

رأيت صغير الأمر تنمى شؤونه فيكبر حتى لا يحد ويعظم

وورد شبيه له فيما بعد «فكيف كبرت ولم تكبرى» . والفعل على وزن فهو بكسر العين وفتحها فى المضارع من استعلاء السن ، أما أن يعظم فهو من باب «عُظم» ومنه قوله تعالى : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾ [الصف ٣] .

- ص (١٠٠٢) ورد بيت قيس بن الخطيم :

رد الخليط الجمال فانصرفوا ماذا عليهم لو أنهم وقفوا.

ذكره المحقق بتسهيل همزة «أنهم» كأنه ارتأى أن الوزن يستوجبها ، مع أن الوزن يصح بتحقيق الهمزة ، وعليه فالروايتان صحيحتان من المنسرح.

- ص (١٠١١) ورد بيت مضرس بن قرط المزنى :

فمت كمدا أو عش وحيدا فإنما أراك تكلفنى ما لا أراك تطيق

وصوا به حذف «أراك» الأولى وهو من الطويل .

- ورد ص (١٠١٥) بيت سوادة بن كلاب القشيرى :

لو سألت للناس يوماً بوجهها سحاب الثريا لاستهلت مواطره

ولعل من الصواب زيادة «واو» أو «فاء» فى أول البيت ، بدلا من اللواذ بالخرم وهو زحاف نستهجنه وإن كان وارداً . ونرى أيضا قلقاً فى «للناس» بحرف الجر ، وربما كانت نسخة «ع» أضبط ، حين قالت الرواية «سألت ظمياء» .

- ورد (ص ١٦١٤) بيت يقول :

ترفع الصوت أحيانًا وتخفضه كما يطن ذباب الروضة الهزج

لعل الصواب «ترفع» بتضعيف الفاء ، أو بزيادة «فاء» أوله وهو من البسيط، ويراعى فك التضعيف فى الفعل «تمشط» فى ص ١٦٤٢ ، وفى الأبيات كلام جيد يحرج إخواننا المتوقرين ، ولكنه صادق وبرئ .

- ص (١٦٧٠) تحذف الفاء من البيت الثالث وهو من المنسرح ، كما تحذف «الواو» من البيت الأول ص ١٦٧٣ ، وهو من المنسرح كذلك ، وتضاف «واو» فى البيت الثانى ص (١٧٥٣) ليستقيم الوزن وهو من الطويل .

وثمة أوهام قلائل يصح عزوها إلى الطبع والتصحيح ، أو قراءة الفكر والذاكرة لا قراءة العين الباصرة وكلها مما كتب على المرء من النسيان والسهو والغلط ، وما نجا منه أحد ، وحبذا لو نشر المحقق الكريم دراسته الوافية عن الكتاب فى جزء مستقل ، ليكتمل العمل درساً وتحقيقاً ، ولكنه مع أخواته السالفات بناء شامخ فى التحقيق يشهد لعادل سليمان بعلو كعبه فى الفهم والتذوق ، ونخل الكلام ، وأنه امتداد كريم لتلك الذؤابة الكريمة من شيخة المحققين الكبار شاكر وهارون ، وأنه قرين كريم لصنوه الراحل العلامة محمود الطناحى .

ولعل هذه الحماسة تذيع بين جمهرة القراء والأدباء والمتأدبين ، فتحتل مكانتها ومكانها بين أبناء العربية الأصلاء ، لا أبناء اللغو والمجانة من أدعياء الأدب والأدباء .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة
لابن بسام

المجلد الأول من القسم الثانى

تحقيق : الدكتور لطفى عبد البديع

طال انتظار الناس لاستكمال هذا الكتاب أكثر من ثلاثين عاما ، منذ أخرجت لجنة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول آنذاك - المجلد الأول من القسم الرابع عام ١٩٤٥ ؛ وكانت قد أخرجت من قبل القسم الأول فى مجلدين عام ١٩٣٩ و١٩٤٢ ؛ وقد اضطلع بتحقيق المجلد الأول من القسم الثانى الدكتور لطفى عبد البديع ؛ وهو رجل تخصص فى الدراسات الأندلسية منذ أمد طويل ؛ مما يوحى بأن الكتاب صادف أهله ، لكن الكتاب - على صورته هاته - يثير جملة صالحة من المناقشات التى قد تشعر فى النهاية بأنه يحتاج لبذل جهد آخر ؛ حتى يخرج للناس على صورة قريبة مما وضعها ابن بسام .

عوَّل المحقق - كما قال فى المقدمة - فى إخراجه على أربع نسخ : الأولى والثانية من مصورات جامعة القاهرة عن نسختين من مخطوطات دار الكتب الخديوية وعلى إحداهما تملكات بتواريخ ١١٤٢ و١٣٦٢ و١٣٣٥ . وقد رمزنا لها بالحرف «م» ؛ والأخرى ليس عليها شىء ؛ ورمزنا لها بالحرف «ح» ، والثالثة مصورة عن مخطوطة الرباط ورمزنا لها بالحرف «ط» ؛ والرابعة مخطوطة من خزانة عبد الحى الكنانى ؛ وهى من القطع الصغير وليس عليها تاريخ ورمزها «ك» .

بيد أن المحقق فاته - وهذا شىء له أهمية ضخمة - أن يرجع إلى نسخ أخرى هى أقدم بلا شك ، وإليه ثبتًا بما استطعنا الوصول إليه :

* نسخ القسم الثانى من الذخيرة - الخزانة الملكية بالرباط :

* رقم ٧٧٥٣ انتهى نسخه عام ١٠٠٢ هـ بخط أندلسى .

* رقم ٩١٣٣ انتهى نسخه يوم الخميس ٢٠ من شعبان عام ١٠٠٢هـ ؛ يقع فى ٤٧٠ صفحة .

* رقم ٧٧٨٢ - بها نقص من الأول والآخر بخط مغربى .

* رقم ٩٤٩ - بخط مغربى .

نسخ الخزانة العامة بالرباط :

* رقم ٧٣٥ ميكروفيلم - مصور عن مكتبة خاصة لعباس ابن ابراهيم .

* رقم ٦٨٧ ميكروفيلم - صورته جامعة الدول العربية .

* رقم ٩٦٦ ميكروفيلم - صورته جامعة الدول العربية عن عباس بن ابراهيم ؛ ويقع فى ٤١٥ صفحة .

والصورتان الأخيرتان على قيد رمح من إقامة المحقق بالقاهرة .

* رقم ١٣٢٤ « د » راجع فهرس المخطوطات المصورة بجامعة الدول العربية ، ويقع هذا الجزء فى ١٥٧ لوحة مسطرتها ٣٠ بخط مغربى ؛ وينتهى بترجمة ابن سارة الشنترينى (منقول عن الزاوية الحمراء ورقمه ٤ بهذه الزاوية) .

* هذا ،عدا نسختين أخريين ؛ إحداهما بالخزانة الوطنية بالرباط رقمها ٢١٨٢ ، وقد فرغ الناسخ منها فى زوال يوم الأربعاء ٢٤ من ذى القعدة عام ١٠٠٥ ؛ بخط أندلسى جميل مشكول ،وراجع بروكلمان ملحق ١ ص ٥٧٩ ؛ والأخرى نسخة المجمع العلمى العراقى ببغداد كتبها محمد حمدى ، وانتهى منها ثامن عشر من رجب ١٣٣٢هـ ؛ بخط نسخ جميل ؛ تقع فى ٥٠٦ صفحات .

هذه النسخ تتفاوت حداثة وقدامة ، ومن بديه الأمور فى التحقيق أن على من يضطلع به أن يوازن ويدقق ؛ ويرى كل نسخ الكتاب ؛ متخذا بعد ذلك من إحداها عمدة - وغالبا ما تكون أقدمها غير غافل عن استشارة الأخريات ؛ وأن يصف تلك النسخ التى رآها واعتمد عليها وصفًا دقيقًا كأن القارئ يراها ، أما ألا يزيد المحقق عما فعلته لجنة الآداب عام ١٩٣٩ ؛ بل ربما قصر عنها -

وهى لها الصدر لأن هذه النسخ لم تكن قد ظهرت بعد - فهذا مما يتسع فيه أمد الخلاف بيننا.

وليت المحقق وقف عند مقدمته التى لاتتجاوز الصفحتين ؛ مع عدم استيفاء تلك النسخ الأخرى للكتاب ، بل أنه نعى - وحقه أن ينعى على ما صنعه هو فحكمه ينسحب عليه - على من سماهم صناع تاريخ الأدب ؛ لأنهم يكتبون فيه غير معتمدين على «الذخيرة» .

هذا صحيح من وجه ؛ باطل من وجه آخر، فالذخيرة عدة هذا التاريخ ولكنها ليست عدته الوحيدة ؛ أن تتوقف الدراسة حتى نعثر على كل الكتب . وكثير منها رهن المخطوطات لم يعثر عليه ، بل إن بعضها التهمه الضياع فيما التهمه . ومن خطل الرأى أن نطالب بالصمت حتى نعثر على كل شىء ؛ فالحفائر والنقوش والمخطوطات ؛ من شأن المحدث منها أن يصحح غلطًا اقترفه الدارسون ، لأنهم لم يتمكنوا من الاطلاع عليها فى زمن سالف ؛ ومن واجبهم أن يدرسوا وأن يتوصلوا إلى نتائج أتاحتها لهم سبل البحث العلمى الميسرة لهم آنئذ ؛ ولا تثريب عليهم إلا أن يتمسكوا بما وصلوا إليه قبل حين يبين فساده بما اكتشف من وسائل جديدة ، ولهذا جعلت الطبعات المختلفة للكتب ؛ ثم إن النتائج التى يحصل عليها مؤرخ الأدب قابلة للتغير ؛ لأنها مساوقة لطبيعة العلم ذاته .

بذل المحقق - كما قال - أقصى ما فى وسعه فى التصحيح والضبط وتحرير العبارة وتجلية الغامض وشرح الغريب وإزالة الإيهام ، والتعريف بالأعلام ،كل هذا جيد حين تكون العبارة ذات مدلول ؛ أما أن تفقد الكلمات معناها ويصير الكلام من قبيل الرصف والإنشاء ، فهذا مما لايحسن السكوت عليه - كما يقول النحاة - ولئلا يكون كلامنا خاوى الدلالة ؛ إلى القارئ طرفا من الملاحظات التى استطعنا العثور عليها ؛ مرتبة حسب ورودها فى صفحات الكتاب ؛ لتتسنى المراجعة والمعاودة .

---

(١) رأيت هذه المصورات في خزانة صاحبي الباحث عبدالله جمال الدين بمدريد .

ص ٢١ قال ابن عبدون :

يا نفحة الزهر من شوال وافانى　　خلوص رياك فى أنفاس آذار

علق المحقق فى الهامش : شوال علم علي شهر الفطر ؛ وجاز منعه من الصرف لوجود إحدى العلتين فيه ؛ وهى العلمية.

كلام فضفاض ، لأن هذا لا يجوز فى النثر ؛ إنما مناط جوازه فى الشعر فقط وهى ضرورة مستهجنة ؛ ثم أن عروض البيت زنتها «فاعل» ؛ ولا يستقيم ذلك إلا فى حالة التصريع فقط ، وليس فى البيت تصريع . وكان على المحقق الالتفات والتعليق .

ص ٢٢ من شعر المعتضد يخاطب أباه القاضى ؛ ورد هذا البيت فى قصيدته :

ولكنك الدنيا إلى حبيبة　　فما عنك لى إلا إليك ذهاب

البيت اقتبسه المعتضد من المتنبى ؛ وهو فى ديوانه شرح البرقوقى جـ ١ ص ٣٢٧ وكان الواجب أن يوضع بين قوسين تمييزاً له عن بقية أبيات القصيدة ، وأن يشار إليه فى الهامش منسوبا لصاحبه .

ص ٣٢ ورد بيت نسبه صاحب الذخيرة للمخزومى إبى سعيد ؛ ونقل المحقق فى الهامش اسم هذا الشاعر ولم يعرفنا به ؛ وهذا شأنه الغالب فى كل تعريفه بالأعلام ، بل إنه أحيانًا يترك غير المعرف ويعرف المعرف ؛ مثلاً يقول عن «سحبان» إنه مضرب المثل فى البلاغة ، ومثل «سحبان» معروف لدى تلاميذ المدارس الثانوية ؛ ليته فعل ذلك مع الأسماء التى جر عليها النسيان أو الغموض ذيله ، وهنا يفيد فائدة مطلوبة ، لكن مثل «سحبان» لا يكلفه شططاً بالرجوع إلى الكتب .

ص ٣٥ يقول ابن بسام : وناوله - الضمير للمعتمد ابن عباد - بعض نسائه كأس بللور مترعًا خمرًا؛ ولمع البرق فارتاعت فقال :

ريعت من البرق ، وفى كفها　　برق من القهوة لماع

ياليت شعرى؛ وهى شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع

نسب المحقق هذين البيتين إلى بحر «الرجز» والصحيح أنهما من السريع ؛ ثم علق على كلمة «كأس» فقال : أنها مؤنثة مؤاخذا ابن بسام على عبارته الواردة بتذكيرها ، أما أن الكأس مؤنثة فهذا صحيح ؛ أما مؤاخذة ابن بسام فهى على غير وجهها ؛ لأن عبارته تحتمل الصحة ، فكلمة «متسرعا» تنصب على الحالية على وجه راجح ؛ ولها نظير فى شواهد النحو :

نجيت يا رب نوحا واستجبت له فى فلك ماخر فى اليم مشحونا

وصاحب الحال فى المثالين نكرة ، ويسوغ فى مثالنا هذا التذكير أن كلمة «كأس» مضافة إلى بللور ؛ «وهى مذكرة ؛ والمضاف والمضاف إليه كالكلمة الواحدة ، ومنه قول القرآن الكريم : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل ١٢٣]؛ ويجوز أن تجر الكلمة - وهنا احتمال خطأ الناسخ - ووجه ذلك أنه فى حالة الإضافة «كأس بللور» يجوز الإخبار أو الوصف بالتذكير والتأنيث مراعاة لأحد المتضايفين ، ومنه قول الله فى القرآن الكريم : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف ٥٥].

ص ٣٥ ورد هذا البيت للمعتمد :

مهاة تخيرتها خلة لقد أحسنت مقلتى افتقادا

الصواب «مقلتاى» نحواً وعروضاً ؛ فهى فاعل «أحسنت» ؛ وإن أراد المحقق «مقلتى» فى حالة الإفراد - إذ إنه لم يضبطها - فالبيت مكسور .

* فى ص ٥٠ «والذر يعذر فى القدر الذى حمل» يعلق المحقق بقوله : هذا اقتباس ، ولكنه لم يحاول أن ينسبه لصاحبه ؛ وواضح أنه شطر بيت من البسيط .

فى ص ٥٣ ورد هذا البيت :

أعين على نفسى بتزويد أنسها بلى ؛ وقولى لا شىء على حرام

كلمة «بلى» زائدة وبها يختل الوزن .

* ص ٥٤ «وكان الحصرى» بفتح الصاد المهملة ، والكلمة - كما ضبطها الدكتور زكى مبارك «الحصرى» بضم الحاء المهملة وسكون الصاد المهملة ؛ بعدها راء مهملة نسبة إلى عمل الحصر أو بيعها كما ذكر ابن خلكان ؛ ويرسمها علماء الاستشراق بهذه الصورة HOSRY وتاريخ الأدب يعرف رجلين بهذا الاسم ؛ صاحبنا هذا أبو الحسن صاحب القصيدة المشهورة :

يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

والثانى أبو اسحق صاحب«زهر الآداب» (٢) .

* ص ٥٨ ورد بيت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

يعزوه المحقق لبحر الهزج ، والصواب أنه من الوافر .

* ص ٦١ ورد هذا البيت للمعتمد :

والغر لا يفهم شيئا فما يفتح إلا للرضاع فما

تقفيلة البيت الأخير فيها نظر، فزنتها «معلا» وقد قبح العرضيون ذلك، فضلا عن أن الزوق الموسيقي ينبو عنها نبواً فادحا، وقد رجعنا الي نسخة الديوان المطبوعة سنة ١٩٥١ بتحقيق الاستاذين أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد فوجدنا ، البيت علي هذه الصورة :

والغير لا يفهم شيئا فما يفتح إلا لرضاع فما

ونحن مع هذه الرواية ؛ إلا أننا نستنكر كلمة «الغير» الواردة فى الديوان ؛ لأنه لا وجه لها ؛ آخذين برواية الذخيرة ؛ لأن القصيدة كلها عن طفل المعتمد حين رأى أباه يوسف فى قيوده ويناسبه الوصف بالغرارة .

* ص ٦٣ ورد هذا البيت :

ماذا رمتك به الأيام يا كبدى من نبلهن ؛ ولا رام سوى القدر

---

(٢) راجع ما كتبه الدكتور زكي مبارك في تقديمه لـ (زهر الآداب) جـ١ ص ب .

نعتقد أن الخطاب للكبد «رمتك» بكسر الكاف وهى مؤنثة .

ص ٧٥ «وإنما هو الفجر أو البجر» ؛ وردت فى كلام أبى حفص الهوزنى ، وكان على المحقق أن يعزوها لقائلها ، وهو أبو بكر الصديق حين حضرته الوفاة.

* ص ٧٦ ورد هذا البيت فى جملة أبيات للهوزنى أيضًا :

خبر ما جاءنا مصمئل جل حتى دق فيه الأجل

المعروف أن هذا البيت من قصيدة ذائعة الشهرة ، تنسب لتأبط شرا أو لابن أخته ؛ وهى من النمط الصعب على حد قول أبى عبيد البكرى فى كتابه «سمط اللآلىء» ؛ وقد تحدث عنها شيخ المحققين الأستاذ محمود شاكر حديثا ضافيا فى مجلة «المجلة» القاهرية ، فكيف غاب عن المحقق حتى ما يكتب فى المجلات التى يقرؤها جمهرة الناس ، والهوزنى فى قصيدته هذه يتثر النظر إلى تلك اللامية الجيدة ؛ ولكنه لم يدرك شأوها .

وقد ضبط الدكتور عبد البديع القافية بضمة واحدة فقط ؛ ولاندرى كيف ساغت لديه النغمة ، معلقا فى الهامش بأن تخفيف المشدد فى القوافى من الضرائر الشعرية ؛ كلام غريب ؛ لأن القافية مشددة ولا حاجة بنا إلى تلك الضرورة ؛ لأن التخفيف - بلا ريب - مفسد للوزن .

* ص ٧٩ ورد البيت الآتى معزوا لبحر الخفيف ؛ وصحته بحر الرمل :

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

* ص ٨٦ ورد هذا البيت ضمن قصيدة لأبى الوليد الباجى :

غداً نافرا ؛ لا أستطيع اقتناصه ولو أن لى يوم الحبيب حبائل

حرف الروى مضموم ، ونحن لا نعرف لها مساغا نحويا مقبولا ؛ فإن الكلمة حقها النصب اسما «لأن» ؛ وفى هامش الصفحة نفسها ورد هذا البيت معه بيت يسبقه فيه سقط :

فإن الرسول عليه السلام أحق العذاب على من صوره

البيت من المتقارب ، لكنه مختل الشطر الثانى .

* ص ٨٧ ورد هذا البيت :

يـا قلـب كم تلهنـى كـاذبـا أو صـادقـا عن الهـدى جائرا

كلمـة «تلهنى» بضبطهـا هذا خطأ به ينكسـر الوزن ؛ والصواب فـتح اللام بدون تشديد .

* ص ٩٣ ورد هذا البيت :

كـأنمـا أنـواره حـلـة مـن وشـى صنعـا السرى الرفيع

والصواب «صنعاء» بألف التأنيث الممدودة رعاية للوزن .

* ص ٩٤ ورد هذا البيت :

مـا هـو إلا نـور بـرهـانـه وحجـة اللوطـى على الزانـى

لابد من حذف التشديد فى كلمة «اللوطى» رعاية للوزن .

* فى ص ٩٧ ، واذكر قول الحسين :

ومـا رغبتى فى عسـجد أستفيده ولكنهـا فـى مفخـر أستجـده

علق المحقق فى الهـامش بقوله «لعله الحسين بن مطيـر» ، كلمة «لعله» هذه كثرت كـثرة شديدة فى هوامش الكتاب ؛ مما يشـعر القارئ بأن المحقق اعـتمد على ذاكرته وغالباً ما تخونه ؛ فالبيت من قصـيدة مشهورة عارضها «البارودى» فى العصر الحـديث - وهى لابن الحسين المتنبى ؛ وكلمة «ابن» لـعلها سقطت من النساخ لأن صـاحب الرسالة ، وهو أبو الوليد المعلم ، راعى السجـعة بين كلمة «عـين» قبل كلمـة «الحسـين» ؛ وكان يستـطيع أن يقول «المتنبى» مـراعاة للدكتور عبد البديع ؛ لكنه نصب له شـركا ، والقصيدة فى ديوان المتنبى شرح البرقوقى جـ ٢ ص ١٣٠ .

* ص ١٠٢ ورد هذا البيت :

أيام أمرح فى الصـبابة خـالعا وسنى ؛ وأسحب في المجون ذيولا

الصواب «رسنى» بالراء لا بالواو .

* ص ١١١ ورد هذا البيت :

مزجت حمرة اليواقيت بالدر فجاء به على حسب ذاته

البيت بصورته مرتبك مختل الوزن ، لعله يستقيم بزيادة ألف «فجاءا» وهو من الخفيف .

فى الصفحة نفسها جاءت ثلاثة أبيات :

كأن نور الكتان حين بدا وقد جلا حسنه صدا الأنفس

أكف فيروزج معاصمها قد سترتهن خضرة الملبس

أو لا؛ فزرق الياقوت قد وضعت على بساط يروق من سندس

ضبط المحقق حرف الروى بالكسر ، وهذا صحيح وزنًا حسب الدائرة العروضية ؛ أما الواقع الشعرى - حسب علمنا - فلم يرد ضرب المنسرح صحيح التفعيلة «مستفعلن» وعلى هذا نعتقد سكون السين ؛ وتكون التفعيلة مزاحفة «مستفعل» .

* ص ١١٢ ورد هذا البيت :

تزيد[٣] ذوى الألباب فضلا ولم تزل تزيل بطبع الجود من طبع البخل

شرح المحقق «طبع» بالتحريك جمع طبع وهو السجية ، ونحن نختلف معه فى هذا الفهم ؛ فالطبع بالتحريك هنا الدنس ؛ والشاعر يريد أن يقول : إن للبخل دنسا لا يزيله إلا الجود الذى تكسبه الخمر شاربها ، وقريب من هذا المعنى بيت المتنبى :

وما الحياة ؛ ونفسى بعدما علمت إن الحياة كما لا تشتهى طبع[٤]

* فى ص ٢٢٠ ورد هذا البيت :

بأيهما أنا فى الحب باد بشكر الطيف أم بشكر الرقاد

لابد من حذف الباء فى «بشكر» الثانية ليستقيم الوزن .

---

(٣) الضير للكأس .

(٤) راجع شرح البرقوقي للديوان والقاموس المحيط مادة «طبع» .

* ص ١٢٤ ورد هذا البيت :

خـــود وثـيـــر نصفـهـــا ونـصـفـهـــا مـهـفـهـــف

نسبه المحقق إلى مجزوء الكامل ؛ وصوابه مجزوء الرجز .

فى هامش الصفحة نفسها فسر المحـقق كلمة «لفاوان» فقال إنها مثنى «لفاو» والصواب «لفاء» تقلب ألف التأنيث الممدوة واوا عند التثنية في مثل هذه الحالة.

* ص ١٣٠ ورد هذان البيتان :

نطـق العـود فعاتـب مـن نطـق واصطحبـها مزة أو فى فاغتبـق

لا تـدعهـا قهـوة كـرخيـة لم يدعهـا نوح إذ خـاف الغـرق

الشطر الثانى مـن البيت الأول لابد من حذف «فى» ليـستقـيم الوزن ، أما الشطر الثانى من البيت الـثانى فنحن نعتقد تنوين «نوح» مع تسـهيل همزة «إذ» مع أن رواية المحقق صحيحة ؛ إلا أننا أميل لهذا التصحيح ، لكن صرف «نوح أرجح من منعها من الصرف ؛ لأنه علم ثلاثى ساكن الوسط ، وقد وردت فى القرآن الكريم أكثر من مرة مصروفة .

* ص ١٣٥ ورد هذا البيت :

مـاذا على النـاس مـن النـاس ما أحمـق بعـض الناس يا ناس

الشطر الثانى مـختل الوزن ربما استقام مع صـيغة التعـجب الأخرى «أحمق ببعض الناس يا ناس» ؛ لكننا نقف عند كلمة «ربما» غير متجاوزين .

فى هامش الصفحة نفسها وردت أبيات للطغرائى فى صفة النيلوفر ؛ آخرها فى هذا البيت :

أنامـل أصبـاغ صبغـن بنيلـه ورحتـه بيضـاء فى وسطهـا تبـر

الشطر الثانى مختل وزنًا ، يستقيم هكذا «وراحته بيضاء» ؛ أما الشطر الأول فلا يستقيم قراءة ولا معنى ؛ وقد ورد فى ديوان الطغرائى (٥) :

---

(٥) الطبعة الأولى ؛ مطبعة الجوائب - قسطنطينية ١٣٠٠ هـ .

أنامـلُ أصبـــاغ صبغـن بنيلـــه وراحتـه بيضـاء فى وسطهـا تبـر

وعليه يستقيم الفهم .

* ص ١٣٨ ورد هذان البيتان :

وابيـــض ذا وأســـود هـــــذا واجتمـــع الليـــل والنهـــار

خـــد جـــرى للنعيـــم فيـــه مـــا بأحشـــاى منـــه نـــار

الشطر الأول من البيت الأول مختل الوزن ، والشطر الثانى من البيت الثانى مختل أيضا .

* ص ١٥٢ ورد هذا البيت :

هـم نقضـوا ميثاق عهـدك عنـوة فأوثقهـم فى ربقـة الأسـر موثـق

لابد من حذف التشديد فى «موثق» ليستـقيم الوزن على عيب فى القافية - فى رأى أصحـاب العروض - لكنه مـحتـمل ووارد بكثرة ؛ ولسنا مـعهم فى استهجانهم إياه .

* ص ١٦٨ ورد هذا البيت :

أهنيـــك أم هـذا الأنـــام بـأنعـــم جميعهـم فـــى حليهـــا يتبختـــر

الصواب «الأنام» بالنصب ، عطفا على ضمير المخاطب المنصوب .

* ص ١٧١ ورد هذا البيت :

لا تـقـــس غـــرس ربـنـــــا بـالـــذى يـغـــرس البشـــــر

حق حرف الروى السكون ، ولا اسـتقامـة للوزن بغيره : وهو من مـجزوء الخفيف .

* ص ١٧٤ ورد هذا البيت :

بـــان وصـــف الأقـاحـــى الـلـــذ وصـفـــت لـم أرضـه

صوابه «الذى» وفى البيت تدوير .

فى الصفحة نفسها جاء هذا البيت :

وسوسن قد حكى سوالف الغيد فضه

الشطر الأول مختل الوزن ، والبيت من جملة أبيات من بحر المجتث ؛ وتفعيلته الثانية «فاعلاتن» لا «فاعلن» كما وردت هنا .

* ص ١٨٣ ورد هذا البيتان :

سقانى كأسه ولها دبيب زادنى ولها

غزال إن رأى ولهى زها عن قصتى ولها

عزاهما المحقق إلى بحر الهزج ؛ والصواب أنهما من مجزوء الوافر .

* ص ١٩٠ ورد هذا البيت للمتنبى مادحًا على بن منصور الحاجب فى قصيدة تعرف بـ «الدينارية» .

فى رتبة حجب الورى عن نيلها وعلا ، فسموه على الحاجبا

ضبط المحقق «حجب» مبنيا لما لم يسم فاعله ؛ المعنى يحتمل ذلك ، لكن رواية الديوان «حجب» مبنيا للفاعل ؛ ونحن إليها أميل ؛ مساوقة للفعل «علا» المبنى للفاعل أيضا ؛ ولأن المعنى أجدر بالمدح مع هذه الصيغة ، فالممدوح معها صنع شيئًا إيجابيًا به يستأهل المحمدة ؛ ولأن هذه الصيغة أيضا أشكل بمنهج المتنبى من إسناد الفعل إلى الإرادة الإنسانية ، وإلا فأى فضل للممدوح حين حجب الورى - بضم الحاء - عن نيل رتبته ؛ إن هذا إلى الهجاء أقرب منه إلى المدح .

فى الصفحة نفسها ورد هذا البيت :

ما كل ناضر دوحة روضا ولا كل ضياء راق حسنا كوكبا

نعتقد أن الصواب «كل ضياء» بالإضافة ليستقيم المعنى على وجهه مساوقًا لصدر البيت ، والذى أشكل على المحقق صيغة «مفتعلن» فى بحر الكامل ؛ فضبطها بتلك الطريقة الواردة فى الكتاب تخلصًا من المأزق الموسيقى ، مع العلم بأن صيغة «مفتعلن» صحيحة وواردة فى بحر الكامل ؛ لكن على قلة .

* فى ص ١٩٣ ورد هذا البيت :

تسمى اللحام ؛ وليس مشابهة وكيف يشتبه المخدوم والخدم

ترك المحقق اسم البحر على غير العادة ؛ وهو من البسيط ، ونعتقد أن الصواب «تسمى» بحذف تشديد الميم لإقامة العروض وإن كان لا يستقيم.

* ص ١٩٦ ورد هذان البيتان :

يا ثوبه الأزرق الذى قد فاق العراقى فى السناء

كأنه فيه بدر تم يشق فى زرقة السماء

نسبهما صاحب الذخيرة إلى ابن برد فى هذا المجلد ، ونسبهما إلى ابن الرومى فى القسم الأول - المجلد الثانى ص ٣٧ - والصواب أنهما لابن الرومى ؛ وقد وردا فى ديوانه الذى طبع أخيرا بتحقيق الدكتور حسين نصار فى جـ ١ ص ١٣٧ ، كان على المحقق أن يستوثق من هذه الأبيات رادًا إياها إلى قائلها .

بقيت مسألة توثيق الأبيات وتخريج الأحاديث ؛ والاقتباسات النثرية ، وهو جهد لم يبذل المحقق فيه عناء يذكر ؛ وإنما اعتمد على الذاكرة فقط ، وأسعفته كلمة «لعل» فى أغلب الأحيان ؛ تاركًا معظم الأبيات والأحاديث دون توثيق وتخريج ، ولنكتف بمثالين فقط ؛ مشيرين بعدهما إلى أرقام الصفحات دون إثقال على القارئ بذكر الشواهد .

* فى ص ١٢٥ ورد هذان البيتان :

أبت الروادف والثدى لقمصها مس البطون ؛ وأن تمس ظهوراً

وإذا الرياح مع العشى تناوحت نبهن حاسدة ، وهجن غيوراً

ترك المحقق نسبة هذين البيتين ؛ وهما لعمر بن أبى ربيعة ، وقد تحدث عنهما أستاذنا العقاد حديثاً طويلاً باعتبارهما نموذج الجمال عند العربى القديم ؛ فى كتابه «شاعر الغزل» .

* فى ص ١١٠ ورد هذا البيت :

أيـن الخـدود مـن العيـون نفاسـة ورئـاسـة لولا القيـاس الفاسـد

ترك المحقق نسبته أيضاً ، وهو لابن الرومى ؛ من قصيدة مشهورة فى ذم الورد وتفضيل النرجس عليه ؛ وقد أثار موقف هذا الشاعر من الورد معارضات كثيرة حتى اتهم بأنه «جعلى» .

* وإلى القارئ أرقام الصفحات :

٢١ و٤٧ و٥٠ و٧٥ و٧٦ و٧٩ و٩٦ و٩٧ و١١٠ و١١٣ و١١٤ و١٢٥ و١٣٤ و١٦٦ و١٩٦ .

* هذا ما توقفنا عنده من ملاحظات تاركين ما يصح عزوه إلى الأخطاء المطبعية ، مؤكدين اغتباطنا بصدور هذا المجلد من الذخيرة ، منتظرين ما بقى من هذا السفر الجليل .